نجاة الأمة في اغتنام مواسم الطاعات

التوحيد

تصدر عن جماعة أنصار السنة المحمدية • العدد ٥٣٩ السنة الخامسة والأربعون • ذو القعدة ١٤٣٧ هـ • الثمن جنيهان



قتل الأبرياء ليس من الإسلام

ملف العدد

الحج

مَنسك الحَجّ .. آدابٌ وأحكامٌ



- الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة
- الجزاء من جنس العمل
- هدي السلف في المداومة على العمل الصالح

التحرير
٨ شارع قولة عابدين - القاهرة
ت: ٢٣٩٣٦٥١٧ - فاكس: ٢٣٩٣٠٦٦٢

البريد الإلكتروني
MGTAWHEED@HOTMAIL.COM
رئيس التحرير:
GSHATEM@HOTMAIL.COM

قسم التوزيع والاشتراكات
ت: ٢٣٩٣٦٥١٧
ISHTRAK.TAWHEED@YAHOO.COM

المركز العام:
هاتف: ٢٣٩١٥٥٧٦-٢٣٩١٥٤٥٦
WWW.ANSARALSONNA.COM

تنويه

إلى الإخوة مشتركي مجلة التوحيد بمصر: برجاء مراجعة مكتب البريد التابع لكم، والاتصال بقسم الاشتراكات في حالة عدم وصول المجلة، والإبلاغ عن اسم مكتب البريد التابع له المشترك؛ للتواصل مع المسئولين في هيئة البريد، وبحث الشكوى؛ لضمان وصول المجلة للمشترك في موعدها

والله الموفق

السلام عليكم

رحلة الوداع

استغرقت رحلة حج المصطفى صلى الله عليه وسلم ٢٦ يومًا، بدايتها السبت ٢٦ من ذي القعدة، وكان عدد الحجاج معه ١٠٠,٠٠٠ حاج، وتحرك الجمع المبارك يوم الأحد ٢٧ من ذي القعدة من الميقات ذي الحليفة بعد صلاة الظهر، وكان الوصول لمكة المكرمة ضحى الأحد ٤ من ذي الحجة جلس بمكة ٤ أيام من الأحد للخميس، وفي ضحى الخميس يوم التروية توجه لمنى، عاد صلى الله عليه وسلم من الحج خارجًا من مكة يوم ١٤ من ذي الحجة، ثم عاد إلى المدينة وعاش بعد الحج ٨٠ يومًا مرض في آخرها وتوفي، وكان مجموع أيام مرضه ١٣ أو ١٤ يومًا؛ أسبوعان تقريبًا.

الأسبوع الأخير من حياته من الاثنين للاثنين حيث اشتد عليه المرض، فانتقل من بيت ميمونة إلى بيت عائشة بإذن نسائه جميعًا، رضي الله عنهن، اشتد المرض عليه جدًّا يوم الأربعاء قبل الوفاة بـ ٥ أيام، وفي يوم الخميس صلى آخر صلاة بالمسلمين بالمسجد صلاة المغرب بسورة المرسلات، ولم يستطع الخروج للعشاء.

وفي يوم السبت أو الأحد وجد من نفسه خفَّة وصحوة- لكنها كانت صحوة الموت- في صلاة الظهر وصلى بالناس قاعدًا وبجواره أبو بكر رضي الله عنه، وفي يوم الإثنين آخر يوم في حياته ألقى على أصحابه بالمسجد نظرة الوداع- ثم آخر لقاء مع فاطمة، ثم ثقل في حجْر عائشة وهو يقول: بل الرفيق الأعلى. ثم فاضت روحه الشريفة. صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

التحرير

رئيس التحرير:

جمال سعد حاتم

مدير التحرير الفني:

حسين عطا القراط

سكرتير التحرير:

مصطفى خليل أبو المعاطي

الإخراج الصحفي:

أحمد رجب محمد

محمد محمود فتحي

في هذا العدد



ثمن النسخة

مصر ٢٠٠ قرش ، السعودية ٦ ريالات ، الإمارات ٦ دراهم ، الكويت ٥٠٠ فلس، المغرب دولار أمريكي ، الأردن ٥٠٠ فلس، قطر٦ ريالات ، عمان نصف ريال عماني ، أمريكا دولاران ، أوروبا ٢ يورو

الاشتراك السنوي

١- في الداخل ٤٠ جنيهاً بحوالة فورية باسم مجلة التوحيد . على مكتب بريد عابدين ، مع إرسال صورة الحوالة الفورية على فاكس مجلة التوحيد ومرفق بها الاسم والعنوان ورقم التليفون.

٢- في الخارج ٢٥ دولاراً أو ١٠٠ ريال سعودى أو مايعادلهما.

ترسل القيمة بسويفت أو بحوالة بنكية أو شيك على بنك فيصل الإسلامي فرع القاهرة . باسم مجلة التوحيد . أنصار السنة حساب رقم / ١٩١٥٩٠

٨٨٠ جنيه ثمن الكرتونة للأفراد والهيئات والمؤسسات داخل مصر

و ٣٠٠ دولاراً خارج مصر شاملة سعر الشحن .

منفذ البيع الوحيد بمقر مجلة التوحيد الدور السابع

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

جماعة أنصار السنة المحمدية

افتتاحية العدد

قتل الأبرياء ليس من الإسلام

بقلم/ الرئيس العام

د/ عبدالله شاكر الجنيدي

www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين.. وبعدُ:

فمما ابتُلي به الناسُ في هذه الأيام: ما نراه ونسمع عنه في أنحاء العالم من حوادث التفجيرات، والعمليات الانتحارية؛ التي يسميها البعض خطأ «الاستشهادية»، والتي تقتل -دون تمييز- الأبرياءَ ومعصومي الدم، وما يعقب ذلك من دمار في المرافق، والمساجد، والمنشآت العامة والخاصة، بدون تفريق.

يحدث هذا في بلاد الإسلام، وغيرها من بلدان العالم، مما أدى بكثير من المتعجلين والمتهورين أن يُلصقوا هذه الأعمالَ بالإسلام، وهو منها براءٌ، بل إن نبيَّ الإسلام تبرَّأ من مثل هذه الأعمال صراحةً بقوله صلى الله عليه وسلم: «مَن خرَج على أمتي (وفي رواية بسيفه) يضرب برَّها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد بعهده؛ فلستُ منه، وليس مني» (رواه مسلم ١٨٤٨).

ولم تسلم من مثل هذه الأعمال الإرهابية الإجرامية مقدساتُ الإسلام، حتى وصلت إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ففي يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر رمضان المبارك لهذا العام ١٤٣٧هـ، وقبل أذان المغرب فَجعَ أهل المدينة النبوية ومن في مسجد رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم بحَدَث عظيم ومصاب جلل؛ عندما فجر أحد الانتحاريين نفسه بجوار المسجد في مجموعة ممن يقومون على حفظ الأمن والنظام وخدمة زائري مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وما فعله يُعدُّ من الأعمال الإجرامية التي تتصادم مع العقل والدين، وقد هلك هذا الانتحاري بتفجير نفسه وراح ضحية ذلك عددٌ من الجنود الصائمين الموحدين.

وهذه الأعمال الانتحارية تتعارض مع الشريعة الإسلامية السمحة وتنافيها، وهذه بعض الأدلة على ذلك:

١- حرم الإسلام ترويع المؤمنين وإدخال الفزع عليهم، كما في حديث عبد اللهِ بن أبي ليلى قال: حَدَّثَنَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

فَنَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى حَبْلٍ مَعَهُ فَأَخَذَهُ، فَفَزِعَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا". (أبو داود: ٩٤٤/٣).

والفزع هو الذعر والخوف، وكم من مسلم فزع ورُوِّع من هذا الحادث، وقد ذكر المناوي رحمه الله أن هذا لا يجوز ولو كان الفاعل هازلا لما فيه من الإيذاء. (انظر: عون المعبود ٣٤٧/١٣).

فما بال من يفعل ذلك وهو قاصد متعمد، والإسلام بعالميته ورحمته يحرم مثل هذا الفعل حتى مع الحيوانات، كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمَرَةً- طائر صغير كالعصفور- مَعَهَا فَرْخَانِ فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمَرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا"، وَرَأَى قَرْيَةَ نَمْلٍ قَدْ حَرَّقْنَاهَا فَقَالَ: "مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ؟ قُلْنَا نَحْنُ. قَالَ: "إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ". (رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٥٠٨/٢).

وقد ذكر أبو داود رحمه الله تحت باب بعنوان: «باب في كراهية حرق العدو بالنار»، فانظر أيها المسلم إلى رحمة الإسلام بالحيوانات والكفار، ثم انظر إلى فعل هؤلاء البغاة وقتلهم للمسلمين وتحريقهم لهم دون رحمة أو وازع من دين؟!

٢- نهى الإسلام عن حمل السلاح على المؤمنين كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من حمل علينا السلاح فليس منا». (البخاري: ٧٠٧٠، ومسلم: ٩٨).

وهذا وعيد شديد لمن حمل السلاح، فما بالك بالقتل والتفجير والتدمير. قال ابن حجر في شرحه: « ففيه دلالة على تحريم قتال المسلمين والتشديد فيه. وقوله: "فليس منا" أي ليس على طريقتنا، أو ليس متبعا لطريقتنا؛ لأن من حق المسلم على المسلم أن ينصره ويقاتل دونه لا أن يرعبه بحمل السلاح عليه لإرادة قتاله أو قتله». (فتح الباري: ٢٤/١٣).

بل إن الإسلام حرَّم مجرد الإشارة بالسلاح كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يديه فيقع في حفرة من النار». (البخاري: ٧٠٧٢، ومسلم: ٦١٧).

قال ابن حجر: «وفي الحديث النهي عما يفضي إلى المحذور وإن يكن المحذور محققا سواء كان ذلك في جد أو هزل». (فتح الباري: ٢٥/١٣).

وفي رواية لمسلم: أن الملائكة تلعن من يشير إلى أخيه بحديدة. يقول أبو هريرة: قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، حتى وإن كان أخاه لأبيه وأمه». (مسلم: ٢٦١٦).

قال النووي رحمه الله: «فيه تأكيد حرمة المسلم والنهي الشديد عن ترويعه وتخويفه والتعرض له بما قد يؤذيه، وقوله صلى الله عليه وسلم: «وإن كان أخاه لأبيه وأمه» مبالغة في عموم النهي في كل أحد سواء من يتهم فيه ومن لا يتهم، وسواء كان هذا هزلاً ولعبًا أم لا؛ لأن ترويع المسلم حرام على كل حال. (شرح النووي ١٧٠/١٦).

٣- حرَّم الإسلام قتل الأنفس المعصومة على العموم، قال الله تعالى: « وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا » (الإسراء: ٣٣). قال ابن جرير في تفسيرها: «يقول جل ثناؤه: وقضى أيضًا أن لا تقتلوا أيها الناس النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق وحقها أن لا تقتل إلا بكفر بعد إسلام، أو زنا بعد إحصان، أو قَوَد بنفس». (جامع البيان ٥٨/١٥).

وقال تعالى في وصف عباد الرحمن: « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا » (الفرقان: ٦٨، ٦٩).

وقد بيَّنت السُّنة النبوية أن دم المسلم حرام لا يحل إلا بإحدى ثلاث كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة». (البخاري: ٦٨٧٨،

ومسلم: ١٠٩).

وقد عظَّم الإسلام قتل النفس بغير حق، كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لن يزال المؤمن في فُسْحَة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا». (البخاري: ٦٨٦٢). قال ابن العربي في معنى الحديث: «الفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تفنى بوزره». (فتح الباري: ١٢/١٨٨).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أول ما يُقضى بين الناس في الدماء». (البخاري: ٦٨٦٤). وقد دل الحديث على التشديد في الدماء وتعظيم قتل النفس؛ لأن الابتداء إنما يقع بالأهم.

٤- تحريم الإسلام قتل الإنسان لنفسه: حرم الإسلام على العبد قتل نفسه ورتب وعيدًا شديدًا على ذلك، قال تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا» (النساء: ٢٩، ٣٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدًا مخلدًا فيها، ومن تحسى سُمًا فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا». (البخاري: ٥٧٧٨). والحديث أخرجه مسلم في صحيحه تحت باب بعنوان: «باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشيء عُذب به في النار، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة». والحديث في مسلم برقم (١٠٩).

وإني لأعجب بعد هذا من مباركة بعض العلماء لهذه الأعمال الانتحارية، كموقف الدكتور يوسف القرضاوي من البوعزيزي قاتل نفسه في تونس، والذي كان سببًا في قيام الثورة هناك، وقد انتقلت الثورات المشؤومة بعد فعله في بعض البلاد الإسلامية، ولأخينا الباحث عبد الحق التركماني رد علمي رصين على ما ذهب إليه الدكتور القرضاوي وأمثاله.

كلمة حول الحادث الأليم

الذي وقع في مدينة النبي صلى الله عليه وسلم:

هذا الاعتداء المشين الذي وقع في نهاية رمضان قرب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمل إجرامي لا يقره عقل سليم ولا دين قويم، وقد حرَّم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، كما في حديث عاصم قال: «قلت لأنس: أحرَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة؟ قال: نعم، ما بين كذا إلى كذا، لا يقطع شجرها، من أحدث فيها حدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين». (البخاري: ٧٣٠٦).

قال ابن حجر: عن ابن بطال: «خُصَّت المدينة بالذكر لشرفها؛ لكونها مهبط الوحي وموطن الرسول عليه الصلاة والسلام، ومنها انتشر الدين في أقطار الأرض، فكان لها بذلك مزيد فضل على غيرها». (فتح الباري: ١٣/٢٨١).

وروى الطبراني عن عبادة بن الصامت مرفوعًا قال: «اللهم من ظلم أهل المدينة وأخافهم فأخفه، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صرف ولا عدل». قال الألباني: إسناده صحيح. (السلسلة الصحيحة ١/٦٢٠).

فكيف بلعن الله لمن فَجَّر نفسه وظلم أهل المدينة وأخافهم بفعله؟!

وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: «من أراد أهل هذه البلدة بسوء- يعني المدينة- أذابه الله كما يذوب الملح في الماء». (مسلم: ١٣٨٦).

وفي هذه الأحاديث بشرى لأهل المدينة، وأن الله يدافع عنهم، وإني لأرجو أن تكون نهاية هؤلاء المجرمين بهذا الحدث، فيذيبهم الله كما يذوب الملح في الماء.

وفي الختام أود أن أنبه إلى أمر مهم وهو: أن هذه الأعمال الفاسدة لا يجوز نسبتها إلى الإسلام وهو منها بريء، كما لا يجوز النيل من أهل الحق والدعوة إلى الله ممن يقومون بواجب تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، فهؤلاء طريقهم على منهاج النبوة وأولئك ضالون مفسدون.

نسأل الله أن يجنب بلاد المسلمين كل سوء ومكروه، وأن يحفظ علينا ديننا وأمننا، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.



نجاة الأمة في اغتنام مواسم الطاعات

بقلم
رئيس التحرير
جمال سعد حاتم
GSHATEM@HOTMAIL.COM
GSHATEM@HYAHOO.COM

الحمد لله على إحسانه، والشكر على توفيقه وامتنانه، وبعدُ:

تتوالى الأيـام وسـرعان ما تنقضي، وتتوالى مواسم الطاعات وسرعان ما تـذهب، فبالأمس القريب هَـل علينا رمضان، وسرعان ما ذهب وانقضى بكل ما حمل وأدركه معنا من أدركه، ورحل عنا من رحل، وهكذا الدنيا، وها نحن ننتظر موسمًا آخر من مواسم الطاعات، يوفق الله تعالى إليه مَن قدَّر له سبحانه القبول، إنه موسم الحج العظيم، وهو رُكن من أركـان الإسلام، فرَضه الله سبحانه على المستطيع، ووفق إليه من كتب له الفضل وحسن العمل، فاللهم اكتب لنا حجة مقبولة هذا العام بفضلك وكرمك يا أكرم الأكرمين، ولكل من اشتاقت نفسه لزيارة بيتك العتيق، آمين يا رب العالمين.

الأمة بين التيه والهوان

وحري بالأمة الإسلامية ونحن نستقبل موسمًا من مواسم الطاعات، وتَجمُّع المسلمين من شتى بقاع الأرض أن يعرف كل مسلم أن ما تعانيه الأمـة الإسلامية اليـوم مـن أحـداث موجعة وآلام قاسية، وما تمر به في كثير من مواطنها من بلايا متعددة، وما يعيشه المسلمون كل يوم في أصقاع متعددة من عدوان يشهده القاصي والداني، بلا اهتمام ولا اكتراث بحقوق إنسانية ولا أعراف بشرية، ولا مراعاة لمعايير أخلاقية ولا مبادئَ حضارية، ممن يُكنُّون بُغضًا وحقدًا وكراهية للإسلام والمسلمين، كل ذلك يوجب على المسلمين أن يعلموا أن الخطر قد أحدق، وأن شرًّا قد أوْعَدَ وأبْرَقَ، وحينئذ يجب علينا في مثل تلك المواسم التي تتوالى علينا أن نتذكر أنه آن الأوان، وحان الوقت أن نقف عند الأسباب الحقيقية للمآسي والمصائب، وأن ندرك جميعًا الواقع المـذري والضعف المضني الـذي جعلنا في حالة من التيه والهوان، وجعل أعداء الأمة تتكالب عليها كتكالب الأكلة على قصعتها!!

إن الأمـة الإسلامية منذ أكثر من قرن مضى وهي تستجدي الحلول، وتتلقف أسباب النهضة والعزة من تيارات مختلفة المشارب، وتوجهات

متنوعة المآخذ، ومرَّ الزمن وطال العهد ولم تُجد تلك التوجهات إلا عارًا وخزيًا ودمارًا وذُلًا وهوانًا، فلا دنيا أقامت، ولا دينًا أبقت، بل ما خلفت على المسلمين إلا تأخرًا، وتدهورًا في أحوالها، وضعفًا في بلدانها، وتخبطًا في سياساتها، وفقرًا في اقتصادها، وتأخرًا في ازدهارها.

جـرَّت ويـلات وويـلات، تعجز الأقـلام عن تسويدها، لا يسعُ الوقت لعرضها، ولا تستطيع الذاكرة استيعابها؛ لأنها توجهات وتيارات لا تستمد تصوراتها من كتاب ربها، ولا تستضيء بهدي رسولها، ولا تأخذ العبرة من سيرة أسلافها.

وها هنا لا بد أن يعلم الساسة ويَفْقَه المثقفون، ويستدرك العقلاء، وتستفيق الشعوب بأن هناك أسبابًا حقيقية لواقعهم المؤلم قد غُيِّبت عن عقولهم وتناستها قلوبهم، وإلا فمن أراد الرؤية الواضحة والمنطلقات الصحيحة لأسباب الضعف والخزي فلا بد أن يعود لأصل البنيان وأساس الكيان، فالله عز وجل قد اختار هذه الأمة لتكون خير الأمم وهو العليم الخبير، «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» (الملك:١٤).

أما آن الأوان لينصف الغربُ الإسلام؟!

وإذا كنا على أعتاب موسم عالمي من مواسم المسلمين في شتى بقاع المعمورة، ومع انتشار موجة جديدة من موجات الإرهاب والتطرف ممن لا دين لهم في كل بُقعة من أرجاء الدنيا، حتى على الأرض التي آوتهم، وغذت أفكارهم ودربتهم وأمدتهم بالسلاح والمال، وخططت لهم لضرب العالم العربي الإسلامي، وتفتيته والنَّيْل من ثرواته، وتفريق شعوبه أحزابًا وفرقًا، حتى قويت شوكتهم ثم راحوا يتبرءون منهم ومن انتمائهم إليهم، فانقلبوا عليهم وراحوا يحركون كوادرهم في تلك البلدان لنقل عملياتهم إلى عمق تلك البلدان.

وها نحن صباح مساء نسمع ونشاهد حوادث القتل والترويع في فرنسا وألمانيا وبلجيكا، بل في أمريكا نفسها، لم يستثن هذا الإرهاب -الذي عانينا منه في بلادنا وما زلنا- أحدًا، فهو إرهاب غاشم لا يعرف دينًا ولا ملة.

ولقد مر بالعالم صنوف من البلايا، وأنـواعٌ من المصائب، تدمر الحرث والنسل اصطلح عليها بالإرهاب، وقد آن للمسلمين وهم على أعتاب تجمعهم العالمي في موسم الحج أن يصدعوا للعالم كله بحقيقة الإسلام، وموقف الإسلام ممن ينتسبون أنفسهم ظلمًا وعدوانًا للإسلام والمسلمين، وأن يبينوا موقف الإسلام من ذلك.

وآن للعالم أن يصغي لأهـل الإسـلام بعدما أسكتهم دهـرًا، وأن يُنصفهم بعدما ظلمهم، وأساء إليهم في دينهم وكتابهم ونبيهم وقبلتهم، ألا فليعلم العالم أجمع أن ديننا دين الرحمة والخير، دين العدل والهدى، دينٌ يحرِّم الظلم بشتى صوره، وفي الحديث القدسي عن رب العزة جلَّ وعلا: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم مُحرَّمًا فلا تظالموا». (رواه مسلم).

وحرَّم سفك الدماء بغير حق: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ» (الأنعام:١٥١)، وحرَّم الغدر والخيانة، ففي الحديث: «يُنصب لكل غادر لواء غدره عند استه، يُقال يوم القيامة: هذه غدرة فلان بن فلان». (رواه البخاري ومسلم).

وأوجب الوفاء بالعهود، وعصم دم المعاهدين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» (المائدة:١)، وفي الحديث: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة». (رواه البخاري).

وحـرَّم الفساد في الأرض بكل أنواعـه، فحرَّم اختطاف الطائرات والسفن والمراكب ووسائل النقل، وحرم أيضًا الإخلال بالأمن مهما كانت صـوره، وحـرَّم بث الفساد ونشر المخـدرات، وما يسوء الأمـة في دينها ودنياها، يقول الله سبحانه وتعـالى: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ» (المائدة:٣٣)، أبعد هذا يوصف ديننا بالإرهاب؟!

لا بد من وقفة صادقة تراجعون بها أنفسكم، وتـعـودون بها إلـى أفكاركم وعقولكم، ولا يكن عليكم وصاية حتى تعلموا موقف الإسلام من تلك البلايا التي نسبت إليه والإسلام منها براء!!

مقصد التوحيد في الحج

في هذه الأيام حيث تترقب نفوس المسلمين بصفة عامة انعقاد مؤتمر المسلمين العالمي بمكة المكرمة حيث يفد إليها المسلمون من كل فج عميق لأداء مناسك الركن الخامس من أركان الإسلام، إنهم يفدون مستجيبين لأمر الله جل وعلا عندما أمر خليله إبراهيم عليه السلام بقوله: «وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» (الحج:٢٧)، إنهم يفدون للبيت الحرام ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله جل شأنه، ونفوسهم في الوقت ذاته مليئة بالشوق إلى معاني الحج وحكمه وأسراره؛ من خلال أجواء النسك والتنقل في عرصات المشاعر المقدسة.

وتتمثل هذه الوقفات في أعظم الحكم والمقاصد لهذا النسك العظيم، إنها الوقفة مع توحيد الله جل وعلا الذي بُنِيَ البيتُ العتيق من أجله، وجُعل قصد الناس إليه من أرجاء المعمورة لإذكاء شعيرة توحيد العبادة وخلوصها لله سبحانه لا شريك له، «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ» (الحج:٢٦).

إن التوحيد الخالص هو عماد خلافة الإنسان في الأرض، وهو أفضل ما يُطلب، وأجلّ ما يُرغب، وأشرف ما يُنسب، لا يُشيد الملك العتيدُ إلا على دعائم التوحيد، ولا يزول ويتلاشى إلا بزواله، ما عزّت دولة الإسلام إلا بانتشاره، ولا ذلت واستكانت إلا باندثاره.

إنه التوحيد الخالص الذي يحمل الناس إلى برّ الأمان والوقاية من زوابع الشرك بالله في ألوهيته وربوبيته والإلحاد في أسمائه وصفاته، إنه توحيد يُعلق الرجاء بالله، والخوف منه، والاستعانة والاستغاثة به، وألا يُحكَم في الأرض إلا بما شرع الله سبحانه.

إنه التوحيد الذي يغمر قلوب المسلمين باليقين الخالص، والذي شرع الحج لأجله، حيث يقول الباري سبحانه وتعالى: «حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ» (الحج:٣١).

ولذا جعل الله الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس، وما الحجر الأسود إلا موضع الابتداء ونقطة التمييز في هذا البناء المبارك، وليس للبركة والتبرك محلّ مع الأحجار غير الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم بتقبيله والطواف بالبيت، ولقد صوّر الفاروق عمر -رضي الله عنه- هذا الفهم الحسَن بقوله: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ». (أخرجه البخاري).

والمسلم ينبغي أن يعلم علم اليقين عندما يطوف بالبيت، ويقبّل الحجَر الأسود، ويستلم الركن اليماني أن النافع الضار هو الله وحده، وأن أيّ إخلال بهذا المفهوم فإنه يوقع في براثن الشرك بالله، ولذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه في العام التاسع بالحج لينادي في الناس يوم النحر: ألا يحج بعد هذا العام مشركٌ، ولا يطوف بالبيت عريان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعثه في الحجة التي أمَّره عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حجة الوداع يوم النحر في رهط يؤذن في الناس: «ألا يحج بعد العام مشركٌ، ولا يطوف بالبيت عريان». (متفق عليه).

وصدق الله: «ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ» (الحج:٣٠).

مشاهد التوحيد في الحج

إن التوحيد هو الغاية العظمى، وهو رأس الأمر وعموده.

إن مشاهد التوحيد في الحج كثيرةٌ، يأتي على رأسها التلبية: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك». أي: أجيبك إجابة بعد

إجابة، وأنا مقيمٌ على طاعتك، ففيها التصريح بنبذ ما يخالف حقيقة التوحيد، فاللهم اجعلنا من الموحدين الملبين، المهللين، آمين يا رب العالمين.

معاني التكبير في الحج

والحج في الإسلام يُعد نقطة ارتكاز في ميدان التجرد والإيثار والأخوة والمساواة، إضافة إلى دقة أحكامه الشرعية ومسائله الفقهية كباب من أبواب العبادات، وعامة أهل العلم مُطبقون على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحج إلا مرة واحدة، وهي حجة الوداع المشهورة قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بزمن يسير، غير أن آحاد هذه الحجة وصورها كانت وما زالت منهلاً للاعتبار ومنبعًا للأحكام، ومرتعًا خصبًا لجمع الأوابد فيها.

فالله أكبر، الله أكبر، إنها كلمة عظيمة تحيي موات النفس الهامدة، لصوتها هديرٌ كهدير البحر المتلاطم، أو هي أشد وقعًا، بل إنها سلاحٌ فتاك في وجوه أعداء الأمة، وأعداء الملة ولصوص الأرض، وهي سيف الحروب الذي لا يُثلم، كيف لا وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن مدينةً تُفتح في آخر الزمان بهذه الكلمات، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «فَإِذَا جَاؤُوهَا نَزَلُوا فَلَمْ يُقَاتِلُوا بِسِلَاحٍ وَلَمْ يَرْمُوا بِسَهْمٍ، قَالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، فَيَسْقُطُ أَحَدُ جَانِبَيْهَا. قَالَ ثَوْرٌ: لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَالَ الَّذِي فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّانِيَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، فَيَسْقُطُ جَانِبُهَا الْآخَرُ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّالِثَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ، فَيُفَرَّجُ لَهُمْ فَيَدْخُلُوهَا فَيَغْنَمُوا». (رواه مسلم: ٢٩٢٠).

إن الإيمان بقدرة الله وحده، وقهره وغلبته، هو الشعور الذي يخامر قلوب المسلمين في كل حين وآن؛ لأن ذلك يثمر الإقدام والاعتماد عليه وحده، ويبعث في النفس خُلق الشجاعة وعدم الاستخذاء لصروف الأيام وتكالب الأعداء وتحزبهم ضد أمة الإسلام، وأنه لا ينبغي أن يُصغي المسلمون آذانهم للذين يقولون: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، بل ينبغي أن يزيدهم ذلك إيمانًا مع إيمانهم، وتعلقًا بالله العظيم، وأن يقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

الصبر على تقلبات الدهر

إن ما نعيشه في هذه الآونة، وما تتجرعه الأمة من ضربات وطعنات وفتن ومؤامرات تُحاك من أعدائها تجعلنا نقتبس من مواسم الطاعات الصبر على هذه الابتلاءات وتلك الفواجع، فدائمًا ما تكون الدنيا بين هذا وذاك، بين مِنح ومِحَن، وأفراح وأتراح، وآمال وآلام، فدوام الحال من المحال، والصفو يعقبه الكدر، والفرح فيها مشوب بترح وحذر، وهيهات أن يضحك مَن لا يبكي، وأن يتنعم من لم يتنغص، أو يسعد مَن لم يحزن!

هكذا هي الدنيا، وهذه أحوالها، وليس للمؤمن الصادق فيها إلا الصبر، فذلكم دواء دائها، قال الحسن رحمه الله: «جربنا وجرب المجربون، فلم نر شيئًا أنفع من الصبر، به تداوى الأمور، وهو لا يُداوى بغيره».

وفي الحديث: «ما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر»، وكان أمر المؤمن من بين الناس أمرًا عجيبًا؛ لأنه إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له.

وقد أمرنا الله بالصبر وجعله من أسباب العون والمعية الإلهية، فقال سبحانه: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ» (البقرة:١٥٣).

ثم أخبر مؤكدًا أن الحياة محل الابتلاء بالخوف والجوع ونقص الأرزاق والأموال والأنفس والثمرات، وأطلق البشرى للصابرين، وأخبر عن حالهم عند المصائب وجزاءهم، فقال سبحانه: «وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ» (البقرة: ١٥٥-١٥٧). فبالصبر تُعالج مغاليق الأمور، فاللهم اكتبنا من الصابرين، وإلى بيتك الحرام من الزائرين، وأبرم لهذه الأمة أمر رشداً يُعز فيه أهل طاعتك، ويُهدى فيه أهل معصيتك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

الحلقة الخامسة

قال تعالى: «وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ
عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا
وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ
حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥) قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ
يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)
هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى
تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى
مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ» (الجاثية: ٢٢-٣٣).

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ»: أيْ للعَدْلِ وَالْحقِّ، لا لِمَا حَسبَ هَؤُلاءِ الْجاهلُونَ باللهِ، منْ أنَّه يَجْعَلُ مَنِ اجْتَرَحَ السَّيِّئَاتِ، فَعَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ، كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحاتِ في المَحْيَا وَالمَمَاتِ، إذْ كَانَ ذَلكَ منْ فعْلِ غَيْرِ أَهْلِ الْعَدْلِ وَالإنْصَافِ، يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: فلَمْ يَخْلُقِ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ للظُّلْمِ وَالْجَوْرِ، وَلَكنَّا خَلَقْنَاهُمَا للحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَمنَ الْحَقِّ أنْ نُخَالفَ بَيْنَ حُكْمِ المُسيءِ وَالمُحْسنِ في العَاجلِ وَالآجلِ. (جامع البيان (١٤٩/٢٥)).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» فيه وَجْهَانِ:

الأَوَّلُ: أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ «بالْحَقِّ» فَيَكُونُ التَّقْديرُ: وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لأَجْلِ إِظْهَارِ الْحَقِّ، وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ.

الثَّاني: أَنْ يَكُونَ الْعَطْفُ عَلَى مَحْذُوفٍ، وَالتَّقْديرُ: وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ لِيَدُلَّ بِهِمَا عَلَى قُدْرَتِهِ، وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ. وَالمَعْنَى أَنَّ المَقْصُودَ منْ خَلْقِ هَذَا الْعَالَمِ إِظْهَارُ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ، وَذَلكَ لا يَتِمُّ إلَّا إذا حَصَلَ الْبَعْثُ وَالْقيَامَةُ، وَحَصَلَ التَّفَاوُتُ في الدَّرَجَاتِ وَالدَّرَكَاتِ بَيْنَ المُحقِّينَ وَبَيْنَ المُبْطِلِينَ.

تعس عبد الهوى:

ثُمَّ عَادَ تَعَالَى إِلَى شَرْحِ أَحْوَالِ الْكُفَّارِ وَقَبَائِحِ طَوَائِفِهِمْ، فَقَالَ: «أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ

هَوَاهُ» يعني تركوا متابعة الهدى، وأقبلوا على متابعة الهوى، فكانوا يعبدون الهوى كما يعبد الرجل إلهه، وقُرِئ «آلهته هواه» كلما مال طبعه إلى شيء اتبعه وذهب خلفه، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى، يعبد كل وقت واحدًا منها. (التفسير الكبير (٢٦٩/٢٧)).

وهذه الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن المعرضين عن الإيمان، أي لا تعجل بهم ولا تهتم بأمرهم، فليس فيهم حيلة لبشر، لأن الله تعالى أضلهم.

وقال ابن جبير رحمه الله: قوله: «إلهه هواه» إشارة إلى الأصنام، إذ كانوا يعبدون ما يهوون من الحجارة.

وقال قتادة رحمه الله: المعنى: لا يهوى شيئًا إلا ركبه، لا يخاف الله، وهذا كما يقال: الهوى إله معبود.

وهذه الآية وإن كانت نزلت في هوى الكفر فهي متناولة جميع هوى النفس الأمارة:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ذكر الله الهوى إلا ذمه. وقال الشعبي رحمه الله: سُمِّي هوى لهويه بصاحبه. وقال سهل التستري رحمه الله: هواك داؤك، فإن خالفته فدواؤك. وقال أيضًا: إذا شككت في خير أمرين، فانظر أبعدهما من هواك فأته. ومن حكمة الشعر في هذا قول القائل:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك ال
هوى إلى كل ما فيه عليك مقال

وقوله تعالى: «عَلَىٰ عِلْمٍ» قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: على علم من الله تعالى سابق. وقالت فرقة: أي على علم من هذا الضال بأن الحق هو الذي يترك ويعرض عنه، فتكون الآية على هذا من آيات العناد من نحو قوله تعالى: «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا» (النمل: ١٤)، وعلى كلا التأويلين: ف«على علم» حال (المحرر الوجيز (٨٦/٥)).

وقوله تعالى: «وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً» أي سد عليه منافذ الخير والمعرفة والعلم، ولذلك قال: «فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ»؟! أي فمن يوفقه لإصابة الحق، وإبصار محجة الرشد بعد إضلال الله إياه، «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» أيها الناس، فتعلموا أن من فعل الله به ما وصفنا، فلن يهتدي أبدًا، ولن يجد لنفسه وليًّا مرشدًا. (جامع البيان (١٥١/٢٥)).

إبطال حجج المشركين على عدم البعث:

يبطل الله تعالى إنكار المشركين للبعث، ويدحض حججهم، فيذكر شبهتهم أولًا فيقول:

«وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ» والمعنى إنهم يقولون إنما هي حياة واحدة، وموتة واحدة، يحيا الأحياء ثم يموتون، وتولد مواليد يخلفونهم ثم يموتون، وهكذا أبدًا، «وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ» أي إلا مرور الأيام، وكر السنين والأعوام، وهذا منهم نفي لكون الله تعالى هو الذي يحييهم ثم يميتهم. «وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ»، والظن لا يغني من الحق شيئًا.

والدعاوى إن لم تقيموا
عليها بينات أبناؤها أدعياء

هكذا وصفهم الله بالكذب والافتراء، ثم بيّن موقفهم من العلم إذا جاءهم فقال: «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ»:

يقول تعالى إن هؤلاء الكاذبين المكذبين إذا تُتلى عليهم آيات الله البينات الدالات على أن الله يحيي الموتى ويبعث من في القبور -وهي كثيرة- عارضوها بقولهم: «ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» يعنون إن كنتم صادقين في قولكم إن الله يحيي الموتى فابعثوا من مات من آبائنا.

وعملية الإحياء والإماتة تتكرر كل لحظة ولكنهم لا يبصرون، كما قال تعالى: «أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ» (ق: ١٥)، ففي كل ساعة يموت أناس ويولد آخرون، وهذا من أكبر الأدلة الدالة على أن الله يحيي الموتى ويبعث من في القبور، ولذلك قال الله

تَعَالَى: «قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» أَنَّ الَّذِي أَحْيَاهُمْ ثُمَّ أَمَاتَهُمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَبْعَثَهُمْ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (البقرة: ٢٨)، وَكَثِيرًا مَا أَرْشَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَنَّ الَّذِي أَحْيَاهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَهُمْ مَرَّةً ثَانِيَةً: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى» (النجم: ٣١).

قَالَ تَعَالَى: «وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا» (مريم: ٦٦- ٦٨). وَقَالَ تَعَالَى: «أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» (يس: ٧٧- ٧٩).

وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ» (الواقعة: ٦٢) أَنَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعِيدَكُمْ مَرَّةً ثَانِيَةً.

أَهْوَالُ الْقِيَامَةِ وَأَحْوَالُ النَّاسِ فِيهَا:

«وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ»:

«وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَكَيْفَ يَشَاءُ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ. «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ»، الَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ، وَكَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ، وَأَنْكَرُوا الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ، «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ».

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَهْوَالَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: «وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً» عَلَى رُكَبِهَا مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ وَالْخَوْفِ، تَحِلَّةَ قَسَمِ رَبِّنَا حَيْثُ قَالَ: «فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا» (مريم: ٦٨).

«كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا» الَّذِي أَحْصَى أَعْمَالَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ» (يس: ١٢)، وَقَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا» (الإسراء: ٧١- ٧٢).

«الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» لَا تَخَافُونَ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا. كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» (غافر: ١٦- ١٧).

«هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ»، فَهَلْ تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا؟

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى! إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟! فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ». (صحيح سنن الترمذي ٢٦٣٩).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أَيْ نُكَلِّفُ الْمَلَائِكَةَ بِكِتَابَةِ أَعْمَالِكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ» (الزخرف: ٧٩- ٨٠)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» (ق: ١٦-١٨)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا» (الإسراء: ١٣- ١٤).

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: يَا ابْنَ آدَمَ؛ بُسِطَتْ لَكَ صَحِيفَةٌ، وَوُكِّلَ بِكَ مَلَكَانِ كَرِيمَانِ، أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِكَ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِكَ، فَأَمَّا الَّذِي عَنْ يَمِينِكَ فَيَحْفَظُ حَسَنَاتِكَ، وَأَمَّا الَّذِي عَنْ شِمَالِكَ فَيَحْفَظُ سَيِّئَاتِكَ، فَاعْمَلْ مَا شِئْتَ، أَقْلِلْ أَوْ أَكْثِرْ، حَتَّى إِذَا مِتَّ طُوِيَتْ صَحِيفَتُكَ فَجُعِلَتْ فِي عُنُقِكَ مَعَكَ فِي قَبْرِكَ، حَتَّى تَخْرُجَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا تَلْقَاهُ مَنْشُورًا، «اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا»، فَقَدْ عَدَلَ وَاللهِ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ. (تفسير القرآن العظيم: ٢٨/٣).

وَفِي هَذِهِ الْمَعَانِي قَالَ بَعْضُهُمْ:

مَثِّلْ وُقُوفَكَ يَوْمَ الْعَرْضِ عُرْيَانَا
مُسْتَوْحِشًا قَلِقَ الْأَحْشَاءِ حَيْرَانَا
اقْرَأْ كِتَابَكَ يَا عَبْدِي عَلَى مَهَلٍ
فَهَلْ تَرَى فِيهِ حَرْفًا غَيْرَ مَا كَانَا
لَمَّا قَرَأْتَ وَلَمْ تُنْكِرْ قِرَاءَتَهُ
إِقْرَارَ مَنْ عَرَفَ الْأَشْيَاءَ عِرْفَانَا
نَادَى الْجَلِيلُ خُذُوهُ يَا مَلَائِكَتِي
وَامْضُوا بِعَبْدٍ عَصَى لِلنَّارِ عَطْشَانَا
الْمُشْرِكُونَ غَدًا فِي النَّارِ يَلْتَهِبُوا
وَالْمُؤْمِنُونَ بِدَارِ الْخُلْدِ سُكَّانَا

(التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة: ص٦٢٠).

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى جَزَاءَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا» بِقُلُوبِهِمْ «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» بِجَوَارِحِهِمْ، فَكَانُوا مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ، «فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ» يَعْنِي الْجَنَّةَ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي» (أخرجه البخاري ٤٨٥٠).

«ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ»

وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ» (الزخرف: ٦٧- ٧٠).

«وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا» بِرَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ فَإِنَّ اللهَ يُوَبِّخُهُمْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ فَيَقُولُ: «أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ» عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ، «فَاسْتَكْبَرْتُمْ» عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا وَاتِّبَاعِ الرُّسُلِ، «وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ» فِي أَفْعَالِكُمْ كَمَا كُنْتُمْ مُسْتَكْبِرِينَ فِي قُلُوبِكُمْ. «وَإِذَا قِيلَ» أَيْ قَالَتْ لَكُمُ الرُّسُلُ وَأَتْبَاعُهُمْ «إِنَّ وَعْدَ اللهِ» لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ، وَلِلْكَافِرِينَ بِالنَّارِ، وَعْدٌ «حَقٌّ» وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ، «وَالسَّاعَةُ» آتِيَةٌ «لَا رَيْبَ فِيهَا» فَاسْتَعِدُّوا لَهَا، مَا كَانَ جَوَابُكُمْ إِلَّا أَنْ «قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ» أَنَّنَا إِلَى اللهِ رَاجِعُونَ. وَكَانَتِ الْمُفَاجَأَةُ أَنْ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ، «وَبَدَا لَهُمْ» أَيْ ظَهَرَ لَهُمْ «سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا»، أَمَّا أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا فَقَدْ صَارَ هَبَاءً مَنْثُورًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ» (النور: ٣٩)، وَقَالَ تَعَالَى: «فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ» (فصلت: ٢٧).

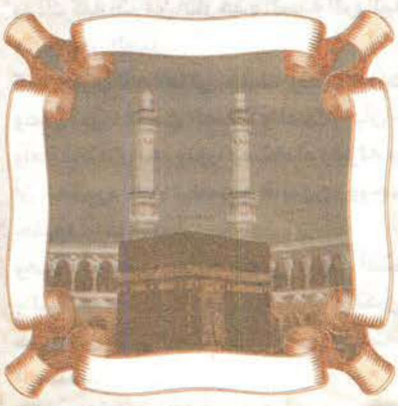
«وَحَاقَ بِهِمْ» أَيْ أَحَاطَ بِهِمْ «مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» مِنَ الْعَذَابِ.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

منبر الحرمين

الجزاء من جنسِ العمل

إعداد/
الشيخ الدكتور
خالد بن علي الغامدي
إمام المسجد الحرام



الحمد لله الذي حكمَ وقدَّر، وبشَّر وأنذَر، أقامَ هذا الكونَ على الميزان والعدل، وامتنَّ على من شاءَ من عباده بالفضل، أحمدُه- سبحانه- حمدًا يليقُ بحكمته البالغة وقدرته الباهرة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وسع كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا، وأحاطَ بكل شيءٍ قدرةً وحُكمًا.

أما بعد: فاتقوا الله- عباد الله- وراقِبُوه، واعلَموا أنكم إن تتقُوا الله يجعَل لكم فُرقانًا ونورًا تمشُون به، ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم.

من قبسات عدل الله وحكمته وقدرته:

إن الله-سبحانه وتعالى- قد أودعَ في هذه الحياة سُننًا ثابتةً لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ، والعاقلُ السعيدُ هو الذي يتعرَّفُ على هذه السُّنن الإلهية ليعمل بمُقتضاها، ولا يُصادمُها ولا يُخالفُها، فيعيشُ في هذه الحياة عيشةَ الكرام الموفقين السُّعداء، وله في الآخرة الأجورُ والنَّعماء.

ومن تلكم السُّنن العظيمة: سُنَّةٌ طالما كان لها الأثرُ الكبيرُ في حياة الناس، وعاقبة أمورهم ومآلهم، ألا وهي: سُنَّةُ أن «الجزاء من جنس العمل»، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

إنها سُنَّةٌ إلهيَّةٌ كُبرى، وقبسٌ من قبَسات عدل الله وحكمته وقدرته التي لا حدودَ لها، وقاعدةُ الجزاء الربَّاني في هذا الكون القائم على العدل والميزان الذي لا يعولُ ولا يميلُ ولا يُحابي أحدًا.

ولو تفكَّر الناسُ جميعًا في ظاهر أمرهم وباطنه، وما هم عليه؛ لوجدُوا هذه السُّنةَ تتجلَّى لهم في كل شُؤون حياتهم، ولفقُهُوا طرفًا من حكمة الله البالغة في أقداره وأحكامه، فالبرُّ لا يبلَى، والإثمُ لا يُنسَى، والديَّانُ لا يموتُ، وكما تدينُ تُدان، وكما تُجازي تُجازَى.

أليس من العجيب أن يرحمَ الله بغيًا؛

لأنها رحمت حيوانًا كاد أن يهلك فروَّت عطشه؟! أليس من المدهش أن يخسف الله بقارون وكنوزه الأرض، ويُجرجره فيها؛ لأنه طغى وبغى، وكاد أن يفتن الناس ويُزلزل إيمانهم بربهم؟!

وإن تعجبوا.. فعجبٌ ما أصاب الصحابة يوم أُحد، حتى قالوا: (أَنَّى هَذَا) (آل عمران: ١٦٥)، فجاء الجواب من الحكم العدل- سبحانه- فاصلاً قاطعًا: (قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ).

الجزاء بالعدل وبالفضل المماثل لعمل العبد ومن جنسه سنة ربانية:

إن هذه السُّنة الربَّانيَّة هي محورُ الجزاء بالعدل وبالفضل المماثل لعمل العبد ومن جنسه، وهي مُطَّردةٌ شرعًا وقدرًا وزمانًا ومكانًا، دلَّت عليها أكثر من مائة آية في كتاب الله، وتكاثَرت النصوصُ النبويةُ في تقريرها وترسيخها في النفوس.

فهل سمعتم أن الله يقول: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) (الرحمن: ٦٠)؟! وهل قرأتم قوله- سبحانه-: (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) (النساء: ١٢٣)؟!

ولقد توالت الآياتُ تلوَ الآيات في بيان أن الله يُجازي أهل الإيمان والتقوى بالحياة الطيبة، فيفتحُ لهم بابَ الأنس به ومعرفته والفرح به- سبحانه-، ويُيسِّر لهم أمورهم، ويكشفُ كروبَهم ويُنجِّيهم، ويحفظهم في أنفسهم وذُرِّيَّاتهم ويكفيهم، وينصُرهم ويُكرمُهم جزاءً بما كانوا يعملون.

ومن اتَّقى اللهَ وأخلص له، وعفَّ عن المحرَّمات؛ صرفَ الله عنه السوءَ والفحشاءَ، وجعلَ له لسانَ صدق في الآخرين، (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) (يوسف: ٢٤).

ومن صدقَ مع الله، وأحسنَ في قوله وعمله؛ صدقه الله وآتاه علمًا وحكمًا، وأقبلَ عليه بقلوب الخلق، وجعلها تفدُ إليه بكل الوُدِّ والمحبَّة والرحمة.

وأما عبادُ الله المُستضعَفون المظلومون المغلوبون، فاسمعوا بماذا يُجازيهم الله: (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ × وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ) (القصص: ٥، ٦).

أيها المسلمون:

حُسنُ العاقبة، وطيبُ المآل من الجزاء الحسن؛ فقد ترى الرجل في شيبَته يعيشُ حياةً طيبةً هنيئةً رضيَّة، وما ذاك إلا لأنه كان لله في شبابه، محافظًا على طاعات ربِّه ورضاه، فحفظَه الله في الكبَر، كما قال النبي- صلى الله عليه وسلم-: «احفَظ الله يحفَظك، احفَظ الله تجِده تُجاهَك» (أخرجه الترمذي وغيرُه).

وقد يُبتلى المرءُ بمُصيبة فيرضَى ويُسلِّم، فيهدي الله قلبَه، ويرضَى عنه، وتكونُ له العاقبةُ الحسنَة، ويُؤتيه الله خيرًا مما أُخذَ منه، وليس ذلك لأحد إلا للمُؤمن، والعاقبةُ للتقوى.

صور من تطبيقات القاعدة الربانية:

واعتَبِروا- يا عباد الله-، اعتبروا بأولئك الذين يُظلُّهم الله الكريمُ في ظلِّه، كيف أنهم لما صبَروا لله في هذه الدنيا، وتحمَّلوا المشاقَّ في سبيله؛ كانت عاقبةُ أمرهم: سُرورًا وحُبورًا، وظلالاً وارفةً باردةً، والناسُ في هول وكرب وشمس لاهبة، (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا) (الإنسان: ١٢).

ومن غضَّ بصرَه، وحفظَ سمعَه ولسانَه عن الحرام؛ جازاه الله وعوَّضه بأن يُطلقَ له نورَ بصيرته وقلبه، ويفتحَ له من الفهم والعلم وسَدادَ القول ما هو أعظمُ لذَّةً وفرحًا من هذه اللذَّات المُحرَّمة.

والكلمةُ الطيبةُ من رضوان الله، يتكلَّمُ بها العبدُ؛ يكتبُ الله له بها رضوانَه إلى يوم القيامة.

ومن برَّ والدَيه، ووصلَ رحمَه؛ وصلَه الله برحمته وكرمه.

ومن استغفرَ للمُؤمنين والمُؤمنات؛ كتبَ الله له بكل مُؤمن ومُؤمنة حسنة. ومن سترَ مُسلمًا ستره الله، ومن يُنفق يُنفقُ الله عليه، ومن كان في عَون أخيه كان اللهَ في عَونه، وإنما يرحمُ الله من عباده الرُّحماء.

وذلك كلُّه أثرٌ من آثار هذه السنَّة الربانيَّة، فالجزاءُ من جنس العمل.

كما جازَى الله تعالى خليلَه ونبيَّه إبراهيم- عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام- بأن جعلَه إمامًا وأمةً يُقتدَى به، ونورًا يُستضاءُ بقوله وفعله، بعد أن اختبرَه الله بكلمات فأتمهنَّ، ووجدَه صابرًا حليمًا أوَّاهًا مُنيبًا.

وهذا يُوسف- عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام- جرَت له من الخُطوب والكُروب، ما كان سببًا لأن مكن الله له في الأرض، وكانت له العاقبة الحسنة.

وسيِّدُ الأولين والآخرين نبيُّنا محمدٌ- صلى الله

عليه وآله وسلم- ابتُلي البلاءَ العظيم، وكمَّل لله مقامات العبودية كلَّها، فكمَّله الله وجمَّله، ورفعَ له ذكرَه في العالمين، وجعلَه إمامَ الخلق كلهم، في كل المقامات الشريفة في الدنيا والآخرة.

وزوجتُه الصفيَّةُ الرضيَّةُ خديجةُ- رضي الله عنها-، بشَّرها الله ببيت من الجنة من قصَب؛ لأنها كانت أسرعَ الناس إلى الإيمان برسول الله، فحازَ قصبَ السبقِ والشرف، لا صخبَ فيه ولا نصَبَ، لأنها أحسنَت صُحبتَه، وواسَته بنفسها ومالها، وقامَت بحقوقه- صلى الله عليه وآله وسلم- بلا ممللٍ ولا كللٍ ولا رفعِ صوتٍ ولا ضجَر.

وتتكاثرُ الشواهدُ والأدلةُ والقصص؛ ليعلم الناسُ كلُّهم أن الجزاءَ من جنس العمل، (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ × وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة: ٧، ٨).

من عجائب البيان لهذه السُّنَّة الإلهيَّة:

أيها المسلمون:

ومن عجائب البيان لهذه السُّنَّة الإلهيَّة: أن من نسيَ الله نَسيَه الله، فلا يُبالي به، ومن سمَّع بعمله سمَّع الله به مسامعَ خلقه وصغَّره وحقَّره، ومن راءى يُرائي الله به، ومن تتبَّع عورات المسلمين تتبَّع الله عورتَه وفضحَه، ومن زاغ عن الهُدى أزاغه الله ومدَّ له من العذاب مدًّا، ومن أعرضَ عن ذكر الله عاش ضنكًا ونكدًا.

ومن عرَّض المؤمنين والمؤمنات للفتنة والعذاب والقتل والتحريق؛ صرعَه الله شقيًّا ذليلاً مبغوضًا، وله في الآخرة عذابُ الحريق، (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) (البروج: ١٠).

والذين نافقوا وأجرَموا، لما سخروا من الذين آمنوا وكانوا منهم في الدنيا يضحَكون ويتغامَزون؛ كان الجزاءُ من جنس العمل، (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ × عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ × هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (المطففين: ٣٤-٣٦).

وقد تحايلَ قومٌ على شريعة الله وأحكامه، فغيَّروا وبدَّلوا وحرَّفوا اتباعًا لأهوائهم وأهواء الذين ظلَموا؛ فغيَّر الله صُورَهم وأشكالَهم، ومسخَهم قردةً خاسئين، وطبَعَ على قلوبهم فلا يعرفون معروفًا، ولا يُنكرون مُنكرًا إلا ما أُشربَ من هواهُم.

وتوعَّد- سبحانه- مانعي الزكاة بكيَّات ثلاث في جباهِهم وجُنوبهم وظُهورهم، وهي كيَّاتٌ مُناسبة لسُوءِ عملهم، جزاءً لهم بنقيض قصدهم.

ومن كتَمَ شرعَ الله، وأخفَى العلمَ الذي يجبُ أن يظهرَ للناس ولم يتُب من ذلك؛ فأولئك يلعنُهم الله ويلعنُهم اللاعنون، ويُلجمُهم الله بلجام من نار يوم القيامة، جزاءً وفاقًا.

وحين نتأمَّل-يا عباد الله-، حين نتأمَّلُ العقوبات التي أنزلَها الله بمن عاندَ أمرَه وخالَفَ رُسُلَه، نجدُ أنها مُناسبةٌ أيَّما مُناسبَة لذنوبهم وأعمالهم، كما قصَّ الله علينا هلاكَ قوم نُوح، وعاد، وثَمود، وأصحاب الأيكة، وقوم لُوط، وفرعَون، وسبأ، وغيرهم، (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (العنكبوت: ٤٠).

قال ابنُ عُمر- رضي الله عنهما-: «كان بالمدينة أقوامٌ لهم عيوبٌ، فسكَتُوا عن عيوب الناس، فأسكتَ الله الناسَ عن عيوبهم، فماتُوا ولا عيوبَ لهم، وكان بالمدينة أقوامٌ لا عيوبَ لهم، فتكلَّموا في عيوب الناس، فأظهرَ الله عيوبَهم، فما زالُوا يُعرَفُون بها إلى أن ماتُوا».

وقال إبراهيمُ النَّخعيُّ- رحمه الله-: «إني لأرَى الشيءَ مما يُعابُ، فما يمنَعني أن أتكلَّم فيه إلا مخافةَ أن أُبتلَى بمثله».

الجزاء من جنس العمل:

إن استشعار سُنَّة أن الجزاء من جنس العمل، واستحضارَها في كل المواقف والأحداث، يمنَحُ العبدَ اليقينَ بعدل الله وحكمته، وأنه القادرُ على كل شيءٍ، الذي لا تخفَى عليه خافية، ويجعلُ العبدَ يتوقَّعُ الخيرَ من الله، فيُحسنُ الظنَّ بربِّه، ويرجُو رحمتَه وكرمَه وحُسن ثوابه، ويشعُر بالطمأنينة والرِّضا؛ لأنه يعلمُ علمَ اليقين أنه سوفَ يُجازَى الجزاءَ الأوفَى، فلا ييأَس ولا ييأس، والله لا يُضيعُ أجرَ من أحسنَ عملاً.

ومن جازاه الله الجزاءَ الحسَن، فلا يغترَّ بذلك

ولا يفخَر؛ بل عليه أن يشكُر الله ويسألَه المزيدَ، لكي يستديمَ هذه النعمة، (لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) (إبراهيم: ٧).

ومن جازاه الله جزاءَ السُّوء، فلا يقنَط من رحمة الله وعفوه، وعليه بالتوبة والاستغفار والبُعد عن مساخط الله وغضبه، فما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفع إلا بتوبة.

وإن قوم يُونس- عليه السلام- لما آمَنوا كشفَ الله عنهم عذابَ الخزي في الحياة الدنيا ومتَّعهم إلى حين.

إن سُنَّة الجزاء من جنس العمل سُنَّةٌ عامَّةٌ على البشريَّة كلها، لا تُحابي أحدًا، ولا تستثني أحدًا، وهي تَحلّ وتنزل بمن يستحقها في الوقت المُناسب في علم الله وحكمته.

فقد كان بين دعوة مُوسَى- عليه الصلاة والسلام- على فرعون وقومه: (رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) (يونس: ٨٨)، كان بين هذه الدعوة وبين استجابة الله لها وهلاك فرعون وقومه أربعُون سنةً، كما ذكرَ ذلك المُفسِّرون، فلا (تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ) (إبراهيم: ٤٢).

وقد يُمهل الله الظالمين المُعتدين، ولكنه لا يُهملهم، وقد يفرَحون بقتل الأبرياء وسفك دمائهم، ويظنُّون كلَّ الظنِّ أنهم أفلتُوا من عقاب الله، فتفجؤهم سُنَّة الله من حيث لم يحتسبُوا.

أيها المسلمون:

إن هذه السنَّة الربَّانيَّة تُربِّي المُسلمَ على التسليم المُطلَق لله الذي بهرَت حكمته العقولَ، وهي تُؤكِّد على أن بني آدم كلَّهم لا يُحيطُون به- سبحانه- علمًا، ولا يُدركون أسرارَ قضائه وقدَره وتدبيره العجيب لأحداث الكون.

فقد يعترضُ بعضُ بني آدم ويسخطون، وقد يشكُّون حينما يرَون بعضَ أقدار الله وكيف يرفعُ الله أقوامًا ويضعُ آخرين، ويفتحُ أبوابًا ويُغلِق أخرى، ويُعطي ويمنَع، ويبتلي ويُعافي، ويُغني ويُفقر، ويُكرمُ ويُهين، ويُعزُ ويُذل، وأنَّى لابن آدم أن يُدرك حكمةَ الله وعلمَه؟!

فيا ابنَ آدم! إنك إن أسلمتَ قلبَك لله، وسلَّمتَ لأمر، ورضيتَ بما قسمَ الله لك، واشتغلتَ بما فرضَ الله عليك، وتركتَ ما لا يعنيك؛ أرحتَ قلبَك وسعدتَّ في حياتك، وكنتَ عند ربِّك محمُودًا. وإن لم ترضَ بما قسمَ الله لك، وضيَّعتَ ما فرضَ الله عليك، واشتغلتَ بما لا يعنيك؛ أحاطَت بك الهُمومُ والغُمومُ، وأعرضَ الله عنك، ثم لا يكونُ لك من الدنيا إلا ما قسمَه الله لك، وكنت عند ربِّك مذمُومًا، فالجزاءُ من جنس العمل، (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) (الكهف: ٤٩).

إن بينَك وبين الله خطايا وذنوبًا، وبينَك وبين الناس هفوات وهَنَات، فإن أحببتَ أن يغفرَ الله لك ويتجاوَز عنك، فأقبِل على الله وتُب إليه، وتجاوَز عن عباده وسامحهم، فالجزاءُ من جنس العمل، (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

يا ابنَ آدم! إنك مهما ظلمتَ واستكبرتَ وعلوتَ، واعتديتَ وآذيتَ، فلن تُفلتَ من العدالة الإلهيَّة، وإن ربَّك لبالمرصاد، إذا أخذَ الظالم لم يُفلتْه، فالجزاءُ من جنس العمل، (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

يا ابنَ آدم! إن أنت بررتَ والدَيك، ووصلتَ رحمَك، ورحمتَ أهلَك وعيالَك، وأحسنتَ للناس كافَّة؛ وجدتَ حلاوةَ ذلك وثوابَه، ورأيتَ بعينيك جزاءَ صنيعك وإحسانك، وإن أبيتَ إلا العقوقَ والبغيَ والقطيعةَ، وأذَى الناس بالحسَد والحقد والخُصومة، فاعلَم أن الجزاءَ من جنس العمل، (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

يا ابنَ آدم! من أطابَ مطعمَه استجابَ الله دعوتَه، ومن عزمَ على ترك الذنوب ذاقَ حلاوةَ الإيمان وأتَته الفتوحُ، ومن أصلحَ سريرتَه أصلحَ الله علانيتَه، ومن أصلحَ ما بينَه وبين الله، أصلحَ الله ما بينه وبين الناس، ومن ترك شيئًا لله عوَّضَه الله خيرًا منه، ولم يجد حسرةَ فقده، فالجزاءُ من جنس العمل، (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

يا ابنَ آدم! إنما هي أعمالُ يُحصيها الله ويكتبُها، وسوف تقرؤُها في صحيفَة أعمالك يوم تلقاه؛ فمن وجدَ خيرًا فليحمَد الله، ومن وجدَ غيرَ ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسَه، فالجزاءُ من جنس العمل، (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، وانصُر دينَك، وكتابَك، وسُنَّة نبيِّك، وعبادَك الصالحين.

وصلَّى الله وسلَّم وبارَك على نبيِّنا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

باب السنة

هدي السلف في المداومة على العمل الصالح

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فمع تعاقب الليل والنهار، وانصرام الليالي والأيام، انقضى شهر رمضان، ثم تلاه متصلاً به شهر شوال، وقد حرص فيه الناس على اتصال الأعمال بأعمالهم الصالحة في شهر رمضان، وقدر الله الكوني في خلقه أنه إذا طال بالناس الأمد، وبعُد عهدُهم بشهرهم تسرب الملل إلى نفوسهم، ودبَّ الكسل في بعضهم، فكانت الذكرى عبادة الوقت والذكرى تنفع المؤمنين، ومن ذلك ما رواه إمام المحدثين الإمام البخاري - رحمه الله- إذ قال: بابُ القَصْد وَالمُدَاوَمَة عَلَى العَمَل، ثم قال: حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، أَخْبَرَنَا أَبِي، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ أَشْعَثَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي، قَالَ: سَمِعْتُ مَسْرُوقًا، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا: أَيُّ العَمَل كَانَ أَحَبَّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: «الدَّائِمُ» قَالَ: قُلْتُ: فَأَيَّ حِينٍ كَانَ يَقُومُ؟ قَالَتْ: «كَانَ يَقُومُ إِذَا سَمِعَ الصَّارِخَ»

التخريج:

رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٦٠٩٦)، ورواه في كتاب التهجد، باب من نام من السحر (١٠٨٠)، ورواه في كتاب الإيمان بمعناه باب أحب الدين إلى الله أدومه (٤٣).

ورواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل، (٧٤١).

والحديث مروي في سنن أبي داود في الصلاة والصوم، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار، وفي الإيمان وشرائعه، وفي الصيام، وابن ماجة في الصيام والزهد؛ وغيرهم.

فائدة:

يكتفي المحدثون بتخريج الحديث من الصحيحين إذا كان فيهما؛ إذ إن ذلك فيه غنية وكفاية، لكنني أشرت إلى عناوين

الأبواب في غيرهما؛ إذ في ذلك إشارة لما استفادوه من الحديث.

الشرح:

قوله: باب الْقَصْد وَالْمُدَاوَمَة عَلَى الْعَمَل: أي هذا باب يُذكر فيه ما يدل على القصد، وهو سلوك الطريق المعتدلة الموافقة للسنة التي لا إفراط فيها ولا تفريط، وذلك لتحقيق (المداومة على العمل) الصالح وإن قلّ. وَذَكَرَ البخاري في الباب ثَمَانِيَة أَحَادِيث أَكْثَرهَا مُكَرَّر، وَفِي بَعْضهَا زِيَادَة عَلَى بَعْض، وَمُحَصَّل مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ: الْحَثّ عَلَى مُدَاوَمَة الْعَمَل الصَّالح وَإِنْ قَلَّ، وَأَنَّ الْجَنَّة لا يَدْخُلهَا أَحَد بِعَمَلِهِ بَلْ بِرَحْمَة الله.

وأول حديث في الباب هو حديث عبدان، وفيه قال: (حدثنا عبدان) هو لقب عبد الله بن عثمان بن جبلة بن أبي رواد المروزي قال: (أخبرنا) ولأبي ذر بالإفراد (أبي) عثمان (عن شعبة) بن الحجاج (عن أشعث)، بالمعجمة والمثلثة، بينهما مهملة مفتوحة (قال: سمعت أبي) هو أبو الشعثاء سليم بن الأسود المحاربي (قال: سمعت مسروقًا) هو ابن الأجدع. (قال: سألت عائشة-رضي الله عنها- أي العمل كان أحب إلى النبي-صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ-؟ قالت: الدائم)؛ الذي يستمر عليه عامله.

(قال) مسروق (قلت) لها: (فأي حين) أي كان يقوم-صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ- يصلي من الليل؟ (قالت: كان يقوم) من النوم (إذا سمع الصارخ)، وهو الديك، وهو يصرخ نصف الليل غالبًا. وقال ابن بطال: عند ثلث الليل. والصَّارخ هو الدِّيك، وَالصَّرْخَة الصَّيْحَة الشَّدِيدَة، وَجَرَتْ الْعَادَة بِأَنَّ الدِّيك يَصِيح عِنْدَ نِصْف اللَّيْل غَالِبًا؛ قَالَهُ مُحَمَّد بن نَاصِر. قَالَ ابن التِّين: وَهُوَ مُوَافِق لِقَوْلِ ابن عَبَّاس: نِصْف اللَّيْل أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيل أَوْ بعده بقليل. (وينظر: فتح الباري لابن حجر (١٧/٣)، و(شرح الحديث في إرشاد الساري للقسطلاني).

مما يستفاد من الحديث:

أن المداومة علي العمل الصالح من خصائص عباد الله إذ وصفهم الله بهذا فقال «الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ» (المعارج: ٢٣).

وفي المداومة على العمل زيادة في الإيمان؛ إذ الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي والغفلات.

وفي المداومة على الأعمال سببٌ لمحبة ذي العزة والجلال؛ إذ يقول الله تعالى في الحديث القدسي: ".. ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه.. الحديث " (أخرجه البخاري ٦١٣٧)، ومحبة الرحمن من بشريات ولاية العبد وكرامته.

وفي المداومة على الأعمال تكميل لما ينقص من الفرائض والتكاليف؛ إذ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ أوَّل ما يُحاسَبُ به العبدُ يوم القيامة من عمله صلاته؛ فإنْ صلحت فقد أفلح وأنجح، وإنْ فَسَدتْ فقد خابَ وخسر، فإن انتقص من فريضته شيءٌ قال الرب- عزَّ وجلَّ-: انظروا هل لعبدي من تطوُّع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك"، (أخرجه الترمذي ٤١٣ وصححه الألباني).

وفي المداومة على الأعمال رجاء حسن الخاتمة؛ يقول الحافظ ابن كثير: "لقد أجرى الله الكريم عادته بكرمه أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (يُبعَث كل عبد على ما مات عليه) (صحيح مسلم ٢٧٨٧).

ويقول صلى الله عليه وسلم: (إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله، قيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه) (سنن الترمذي ٢١٤٢ وصححه الألباني).

وفي المداومة على الأعمال سبب لتكفير المعاصي والآثام؛ إذ قال ربنا تعالى ذكره: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) (هود: ١١٤).

ولا شك أن المداومة على الطاعات، بكل ما تقدم، سببٌ يُرجَى به دخول الجنات.

وأدلة الشرع تضافرت للمعونة على ذلك:

ومن أجل كل هذه الفضائل وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره؛ فإن الله قد شرع لنا ما يعيننا على تلكم المداومة؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم كما في الترمذي من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (من نام عن حزبه، أو عن شيء منه

فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل) (سنن أبي داود ١٣١٣ وصححه الألباني).

بل إن الله تفضل بالأجر على المستقيم ولو لم يعمل فقال صلى الله عليه وسلم: (إذا مَرِضَ العبدُ أو سافر كتَبَ الله له ما كان يعمَلُ صَحيحًا مقيمًا) (صحيح البخاري ٢٨٣٤)؛ وذلك إذا تخلف عن العمل لعذر.

لذا كان من شأن العقلاء التماس الأسباب المعينة على المداومة، ومن ذلك:

أولا: الاستعانة برب العزة والجلال والإكثار من الدعاء وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه رضوان الله عليهم كما قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: (لا تدع أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) (سنن أبي داود ١٥٢٢ وصححه الألباني).

ثانيًا: التنويع بين العبادات والتدرج في الأعمال طالما وافق العبد السنة فكله خير، وأينما وجد العبد قلبه فثم شرع الله، وهو المراد، يقول ابن قدامة في مختصر منهاج القاصدين (ص: ٥٦) في شأن التنوع: (والنفس متى وقفت على فن واحد حصل لها ملل، فمن التلطف نقلها من فن إلى فن).

ثالثا: ومما يعين على المداومة على العمل جمع الهمّ على الآخرة والجنة ونعيمها والنار وعذابها، ومقارنة ذلك جميعه بالدنيا وما فيها، وحصر الذهن في ذلك؛ كما ذكر صاحب كتاب علو الهمة قال: "الاجتهاد في حصر الذهن، وتركيز الفكر في معالي الأمور،... وهو توحيد الإرادة، يعني: إرادة همّ الآخرة بلا منافس؛ لأن الدنيا والآخرة ضرتان، إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى.

فمن أسباب الارتقاء بالهمة: نظرية حصر الذهن والتركيز تماماً فيما تريد أن تنجزه من الأمور، فالإنسان إذا لم يبادر بأن يشغل نفسه بالحق فإنها تشغله بالباطل، كما قال الحسن: "نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل".

فلا بد أن تكون النفس مشغولة، وإن لم تبادر أنت بشغلها بالحق فإنها تتفرق بك في أودية الدنيا.

سئل كثير بن عبيد الحمصي عن سبب عدم سهوه في الصلاة قط، مع أنه أمَّ الناس في حمص حوالى ستين سنة كاملة في الصلوات الخمس، ولم يسهُ في صلاته قط، فسئل عن سبب هذا فقال: "ما دخلت من باب المسجد قط وفي نفسي غير الله".

وهذه هي ثمرة من ثمرات حصر الذهن في مطلب واحد، وإرادة واحدة، وهي إرادة الآخرة وإرادة الله سبحانه وتعالى، فالتركيز بلا شك يثمر هذه النتائج العظيمة.

وقد رأينا مظاهر عجيبة للسلف الصالح رحمهم الله تعالى في موضوع التركيز في طلب الآخرة، فلم يشتتوا همتهم في الدنيا، فهذا الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب العربية ومنشئ علم العروض، كان إماماً مفرط الذكاء، والإمام الخليل بن أحمد بقدر ما هو صاحب الشهرة المعروفة في اللغة العربية والعروض، وقد يتصور أن هذه العلوم يكون عند أصحابها جفاء مثلاً، لكنه كان من العباد ومن الزاهدين ومن الخيرين... وقد كان متقشفاً متعبداً، قال النضر بن شميل: أقام الخليل في خُصّ له بالبصرة، (يعني: في بيت من خشب أو بيت من شجر أو من قصب) قال: أقام الخليل في خص له بالبصرة ولا يقدر على فلسين، وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال، وكان كثيراً ما ينشد:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد
ذخراً يكون كصالح الأعمال

فهو معدود من زهاد العالم القلائل، فرحمه الله تعالى، وكان يقول: "إني أغلق عليَّ بابي فما يجاوزه همي"، فكان الخليل بن أحمد يخرج من منزله واهتمامه بشيء محدد، هو طلب الآخرة، فكان ينشغل جداً وتجد شدة تركيز ذهنه في مقصد واحد وهو طلب الآخرة، فكان يخرج من المنزل ولا يشعر بنفسه إلا وهو في الصحراء، ولم يرد الصحراء وإنما شغله الفكر الذي هو فيه والاستغراق، حتى خرج إلى ما لا يقصده من

الأماكن؛ لشدة استغراقه في أمر محدد، فيذهل عما عداه.

خامسًا: صحبة الأخيار والاطلاع على سيرهم ومنه الوقوف على سير السلف ومن ذلك ما كان من أبي بكر وعمر وعبدالله بن عمرو وعلي بن أبي طالب وغيرهم من الصحابة، فلتطلع سيرهم في هذا في مثل كتاب (أسد الغابة في سير الصحابة).

ومنه ما ورد في شأن عمر بن عبد العزيز-رحمه الله تعالى- في أيام خلافته؛ تقول زوجته فاطمة: كان إذا صلى العشاء قعد في مسجده، ثم يرفع يديه فلم يزل يبكي حتى تغلبه عينه، ثم ينتبه، فلا يزال يدعو رافعاً يديه يبكي حتى تغلبه عينه، يفعل ذلك ليله أجمع.

وهذا مسروق الأجدع كان يصلي حتى تتورم قدماه، حتى إن امرأته كانت تبكي مما ترى من تعبه ومعاناته.

وأما عروة بن الزبير وهو من فقهاء المدينة فكان يقرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف في النهار، ثم يقوم به في الليل، لقد كان يقرأ بمعدل نصف القرآن في يومه وليلته، وما تركه إلا ليلة واحدة حينما قطعت رجله في سفرته المعروفة حينما ذهب إلى الشام.

وهذا عبد الرحمن بن مهدي كان وِرْده كل ليلة طوال السنة نصف القرآن، وهذا طلق بن حبيب كان إذا افتتح سورة البقرة في الصلاة لا يركع حتى يبلغ العنكبوت-أي أكثر من نصف القرآن- وكان يقول: أشتهي أن أقوم حتى يشتكي صلبي.

وهذا منصور بن المعتمر يقول بعض جيرانه: هذا صبي صغير أو صبية كانوا يرون منصور بن المعتمر يصلي على سطحه يظنونه في الليل خشبة أو عموداً من طول قيامه، فلما مات فَقَدَ، فقال هذا الصبي أو الصبية لأبيه: أين الخشبة التي كانت في سطح منصور قائمة؟، قال يا بنية: ذاك منصور كان يقوم الليل!!

وهذا وكيع بن الجراح كان لا ينام حتى يقرأ جزأه من كل ليلة ثلث القرآن، ثم يقوم في آخر الليل فيقرأ المفصل، ثم يجلس فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر.

وهذا سفيان الثوري -رحمه الله- جلس مع أصحابه مرة فصار يسألهم رجلاً رجلاً عن عملهم بالليل ماذا تعملون؟ فأخبروه جميعاً ثم سكت، فقالوا له: يا أبا عبد الله أخبرناك، فأخبرنا كيف تصنع؟ فقال: لها عندي أول نومة تنام ما شاءت لا أمنعها، فإذا استيقظت فلا أقيلها والله، أي أنه ينام نومة فإذا استيقظ فلا يقيل نفسه ولا يرجع إلى فراشه مرة ثانية.

وأما الإمام أحمد إمام أهل السنة والجماعة فكان-كما وصفه ابنه عبد الله- لا يفتر من الصلاة بين العشاءين، فيصلي بين المغرب والعشاء، ويصلي بعد العشاء في ورده من صلاة الليل، وكان ساعة يصلي العشاء الآخرة ينام نومة خفيفة، ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو.

ورآه المروذي مرة يقوم لورده قريباً من نصف الليل حتى يقارب السحر، قال: ورأيته يركع فيما بين المغرب والعشاء، وكان يقرأ في كل يوم سبع القرآن.

وقد يقول بعضنا: قد رقت عظامي ووهنت، وبلغت من الكبر عتياً، فأقول: حتى مع الشيخوخة وتقدم العمر بالإنسان لم يكونوا يفرطون في طاعة الله-تبارك وتعالى.

والأحنف بن قيس بلغ سناً كبيرة، وضعف وشاب فكان يصوم، وكان أهله ومن حوله يقولون: إنك ضعيف، والصوم يضعفك!! فكان يقول: إني أعده لسفر طويل، وكان عامة صلاة الأحنف بالليل، وكان يضع أصبعه على المصباح ثم يقول: حس، ويقول: ما حملك يا أحنف على أن صنعت في يوم كذا كذا وكذا؟.

وبعضهم كان يقسم الليل أثلاثاً لكن بطريقة أخرى، فكانوا يقسمونه على أهل الدار يقوم هذا وينام الآخرون، ثم ينام هذا ويقوم الآخر، ثم ينام هذا ويقوم الثالث، وكان الحسن بن صالح مع أخيه ومع أمه قد قسموا الليل أثلاثاً، فلما ماتت أمه قسموه على نصفين يصلي الحسن بن صالح شطراً، ويصلي أخوه الشطر الآخر، فلما مات عليٌّ كره الحسن بن صالح -رحمه الله- أن يقطع عادته من إحياء بيتهم بصلاة الليل، فكان يصلي الليل جميعاً يقوم بورده ويصلي الوقت الذي كان يصلي فيه أخوه وأمه. (ينظر عبادة السلف لصلاح عبدالموجود).

وفي هذا القدر الكفاية، والحمد لله رب العالمين.

درر البحار في تحقيق ضعيف الأحاديث القصار

القسم الثاني

الحلقة (٤٩)

إعداد/ علي حشيش

٤٤٧- "التَّضَلُّعُ مِنْ ماءِ زَمْزَمَ بَراءَةٌ مِنَ النِّفاقِ".

الحديث لا يصح: أخرجه الأزرقي في «أخبار مكة» (٥٢/٢) ط. دار الثقافة بمكة المكرمة، من حديث ابن عباس مرفوعًا، وآفته الواقدي وهو محمد بن عمر بن واقد الأسلمي الواقدي المدني، قال الحافظ الذهبي في «الميزان» (٧٩٩٣/٦٦٢/٣) قال أحمد ابن حنبل: هو كذاب يقلب الأحاديث، وقال البخاري وأبو حاتم: متروك، وقال أبو حاتم أيضًا والنسائي: يضع الحديث، وقال ابن معين: ليس بثقة. اهـ.

٤٤٨- "الحَجَرُ الأَسْوَدُ نَزَلَ بِهِ مَلَكٌ مِنَ السَّماءِ".

الحديث لا يصح: أخرجه الأزرقي في «أخبار مكة» (٣٢٧/١) من حديث ابن عباس مرفوعًا، وآفته إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى، قال الإمام الحافظ ابن حبان في «المجروحين» (١٠٧/١): سمعت محمد بن المنذر يقول: سمعت العباس يقول: سمعت يحيى ابن معين يقول: إبراهيم بن أبي يحيى: كذاب، وكان رافضيًا قدريًا. وأخرج عن يحيى ابن سعيد القطان قال: «أشهد على إبراهيم بن أبي يحيى أنه يكذب». اهـ.

وقال الذهبي في «الميزان» (١٨٩/٥٧/١): إبراهيم بن أبي يحيى هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي المدني، قال إبراهيم بن عَرْعَرة: سمعت يحيى بن سعيد يقول: سألت مالكًا عنه أكان ثقة في الحديث؟ فقال: لا ولا في دينه. وقال يحيى ابن معين: سمعت القطان يقول: إبراهيم بن أبي يحيى كذاب. اهـ.

٤٤٩- "عَلَى الرُّكْنِ الْيَمَانِي مَلَكٌ مُوكَّلٌ بِهِ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِذَا مَرَرْتُمْ بِهِ فَقُولُوا (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)؛ فَإِنَّهُ يَقُولُ آمِينَ آمِينَ"

الحديث لا يصح: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨٢/٥)، والخطيب في «التاريخ» (٢٢٧/١٢) من حديث ابن عباس مرفوعًا، وعلته محمد بن الفضل بن عطية، قال الحافظ المزي في «تهذيب الكمال» (٦١٣٥/١٤٩/١٧): «محمد بن الفضل بن عطية أبو عبد الله الكوفي المروزي روى عنه كُرْز بن وَبْرَةَ ومحمد بن سُوقة وآخرون، روى عنه عيسى بن موسى غُنْجار وآخرون، قال الحسين بن الحسن الرازي عن يحيى بن معين كذاب، وقال عمرو بن علي: متروك الحديث كذاب، وقال أبو حاتم: ذاهب الحديث،

وقال النسائي: كذاب، وقال أبو داود: ليس بشيء، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الأثبات لا يحل كتب حديثه إلا على سبيل الاعتبار». اهـ.

٤٥٠- " الْعُمْرَةُ مِنَ الحَجِّ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ وَبِمَنْزِلَةِ الزَّكَاةِ مِنَ الصِّيَامِ ".

الحديث لا يصح: أخرجه الديلمي (٨٣/٣) (ح٤٢٣٤) وأورده الإمام السيوطي في «الجامع الكبير» (ح١١٣٢٢)، وعزاه إلى الديلمي عن ابن عباس مرفوعًا، وضعفه كما في منهجه في «التخريج»، وعلته جويبر بن سعيد أبو القاسم الأزدي البلخي صاحب الضحاك، قاله الحافظ الذهبي في «الميزان» (١٥٩٣/٤٢٧/١). ثم نقل عن ابن معين أنه قال: «ليس بشيء». وقال الجوزجاني: «لا يشتغل به». وقال النسائي والدارقطني وغيرهما: متروك. اهـ.

٤٥١- " الحاجُّ في ضَمانِ اللهِ مُقبِلاً ومُدْبِراً، فإنْ أصابَه في سَفَرِهِ تَعَبٌ أو نَصَبٌ غفَرَ اللهُ له بذلك سيئاته، وكان له بكل قدمٍ يرفعه ألف درجةٍ في الجنةِ، وبكلِّ قطرةٍ تُصيبه من مطرٍ أجرُ شهيدٍ ".

الحديث لا يصح: أخرجه الديلمي (١٤٩/٢) (ح٢٩٦١) من حديث أبي أمامة مرفوعًا وعلته عبد الله بن محمد بن يعقوب أورده الذهبي في «الميزان» (٤٥٧١/٤٩٦/٢) قال: عبد الله بن محمد بن يعقوب الحارثي قال ابن الجوزي: قال أبو سعيد الرواس: يتهم بوضع الحديث، وقال أحمد السليماني: كان يضع هذا الإسناد على هذا المتن، وهذا المتن على هذا الإسناد، وهذا ضرب من الوضع، وقال الحاكم: هو صاحب عجائب وأفراد عن الثقات، وقال الخطيب: لا يحتج به. اهـ.

٤٥٢- " مَن طافَ أُسبوعًا في المطرِ غُفِرَ له ما سلفَ من ذنوبه ".

أورده الإمام الشوكاني في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» في كتاب «الحج» (ح٨) ثم نقل عن الإمام الصغاني أنه قال: «هو باطل لا أصل له».

٤٥٣- " سُفهاءُ مكةَ حَشْوُ الجنَّة "

أورده الإمام السخاوي في «المقاصد» (ح٥٦٤) وقال: «قال شيخنا- يعني الحافظ ابن حجر- لم أقف عليه». اهـ.

٤٥٤- " إنَّ اللهَ تعالى يحبُّ أنْ يَرَى عَبْدَهُ تَعِباً في طَلَبِ الحَلالِ ".

الحديث لا يصح: أخرجه أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» (٢٤٧/١) قال: أخبرنا عبدوس، أخبرنا أبو طاهر بن سلمة، حدثنا الفضل بن الفضل الكندي، حدثنا محمد بن سهل بن الحسن العطار، حدثني أبو محمد عبد الله بن محمد البلوي، حدثني إبراهيم ابن عبد الله بن العلاء عن أبيه، عن زيد بن علي عن أبيه، عن جده الحسين عن علي رضي الله عنه مرفوعًا، وعلته: محمد بن سهل العطار ذكره الحافظ ابن حجر في «اللسان» (٢١٩/٥) (٧٤٦٠/٦٧٥)، قال الدارقطني: كان ممن يضع الحديث، وقال أبو أحمد الحاكم: كذاب، وقال الخلال: كان يضع الحديث. اهـ.

وذكره الذهبي في «الميزان» (٧٦٥٣/٥٧٦/٣)، وقال: «اتهموه بوضع الحديث». اهـ.

منسك الحجّ .. آدابٌ وأحكامٌ

الحلقة الأولى

إعداد/ محمد عبد العزيز

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مُضل له، ومن يضلل؛ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وبعد:

توطئة:

فالحجّ: هو الركن الرابع من أركان الإسلام العملية، وإنما يجب على من استطاع إليه سبيلاً من المكلفين مرة واحدة في العمر.

أما دليل مشروعيته فالكتاب، والسنة، والإجماع.

فمن أدلة مشروعيته من الكتاب قوله تعالى: «وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ» (آل عمران: ٩٧).

ومن أدلة مشروعيته من السنة:

حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بني الإسلام على خمسة، على أن يوحد الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، والحج». فقال رجل: الحج، وصيام رمضان؟ قال: لا، صيام رمضان، والحج، هكذا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦)، واللفظ له.

وأما الدليل على مشروعيته مرة واحدة في العمر فحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج، فحجوا». فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو قلت: نعم لوجبت، ولما استطعتم، ثم قال: ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه». رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم واللفظ له بهذه القصة (١٣٣٧).

وممن نقل الإجماع على ذلك ابن المنذر في الإجماع قال: (ص ٢٨ رقم: ١٣٥): «وأجمعوا على أن على المرء في عمره حجة واحدة، حجة الإسلام، إلا أن ينذر نذرًا فيجب عليه الوفاء به».

كم حج، واعتمر النبي صلى الله عليه وسلم؟

اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم أربع عمرات كلهن في ذي القعدة.

العمرة الأولى: هي عمرة الحديبية في العام السادس للهجرة، وكان قد أحرم من ذي الحليفة فصدَّه المشركون عن بيت الله الحرام، وعقد معهم عقدًا على أن يعود من عامه هذا فلا يدخل مكة، فنحر صلى الله عليه وسلم البدن، وحلق رأسه، وأمر أصحابه رضي الله عنهم أن يفعلوا ذلك (وكانوا ألفًا وأربع مئة)، وأحلوا من إحرامهم، ورجعوا إلى المدينة من عامهم هذا.

العمرة الثانية: عمرة القضية، أو القضاء في العام السابع لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما سميت بذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم قَاضَى أهل مكة عليها، وقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة ثلاثًا بعد عمرتهم، ثم خرجوا منها عائدين إلى المدينة.

العمرة الثالثة: عمرة الجعرَانة في العام الثامن للهجرة بعد عوده صلى الله عليه وسلم من حنين بعد قسمة الغنائم، وكانت في الليل، فلما قضى عمرته رجع إليها فبات بها، وصلى بها الصبح، ولذا خفيت هذه العمرة على كثير من الناس.

العمرة الرابعة: عمرته التي كانت مع حجته في العام العاشر للهجرة، وكان صلى الله عليه وسلم قارنًا.

فهذه أربع عمر اعتمرها النبي صلى الله عليه وسلم فعن قتادة، أن أنسًا رضي الله عنه أخبره: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتمر أربع عمر كلهن في ذي القعدة إلا التي مع حجته: عمرة من الحديبية، أو زمن الحديبية في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة، وعمرة من جعرانة حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة، وعمرة مع حجته». رواه البخاري في أربعة مواضع من صحيحه (١٧٧٨ ١٧٧٩ ١٧٨٠ ٤١٤٨)، ومسلم (١٢٥٣).

وقد حج النبي صلى الله عليه وسلم حجة واحدة بعد الهجرة في العام العاشر، وقد عُرفَتْ عند أهل العلم بحجة الوداع، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ودَّع فيها أمته، فكان يقول: لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، أو حجة البلاغ، لبلاغه صلى الله عليه وسلم للأمة شرائع الإسلام قولاً وفعلاً، و إشهاده الله على ذلك، أو حجة الإسلام لأنه صلى الله عليه وسلم لم يحج من المدينة بعد الهجرة بعدها، فإنه عاش بعدها ثمانين يومًا ثم قبض صلى الله عليه وسلم.

وأوَّل حج أقامه أهل الإسلام كان في العام الثامن للهجرة بعد فتح مكة، وكان أمير الحج أبا عبد الرحمن عتابَ بن أَسيد بن أبي العيص بن أمية رضي الله عنه أميرَ مكة، وكان قد أسلم يوم الفتح، وله من العمر نيف وعشرون سنة، فولاه النبي صلى الله عليه وسلم على مكة ولم يزل عتاب أميرًا لمكة إلى أن مات بها يوم وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فأقام الحج ذلك العام على ما كانت العرب تحج عليه، بعدما طهرت مكة من الأصنام.

ثم أرسل النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله عنهما أميرًا للحج في العام التاسع للهجرة، ثم أردفه علي بن أبي طالب رضي الله عنه مؤذنًا في الناس ألاَّ يطوف بالبيت عريان، ولا يحج بعد العام كافر.

ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم في العام العاشر من الهجرة بعدما طهرت مكة من الشرك، والمشركين فعلَّم الناس مناسكهم وكان يقول لهم: لتأخذوا عني مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه (رواه مسلم من حديث جابر)، فكل منسك الحج مأخوذ من هذه الحجة الوحيدة التي حجها النبي صلى الله عليه وسلم، لذا فقد اعتنى الأئمة سلفًا وخلفًا بسياق حجته تلك، وجمع ما ورد فيها، فلأبي محمد بن حزم الظاهري جمع لسياق حجته تلك قد أجاد فيه، وله فيه أوهام نبَّه عليها أبو عبد الله شمس الدين ابن قيم الجوزية في زاد المعاد حين ذكر هديه صلى الله عليه وسلم في حجته، ولابن كثير في البداية والنهاية جمع مستقصي ساق فيه ما ورد في هذا الحجة من أحاديث وآثار مع توجيه معناه، فجزاهم الله خيرًا عن الإسلام وأهله.

وفي هذا المقال، والذي يليه نسوق ما يفتح الله به من أحكام، وآداب نسك الحج باختصار حسبما يقتضيه المقام.

أنواع النسك:

أنساك الحج ثلاثة: الإفراد، والتمتع، والقران.

الإفراد: هو أن يحرم الناسك بالحج وحده.

التمتع: هو أن يحرم الناسك بالعمرة في أشهر الحج، ثم يحل منها، ثم يهل بالحج من مكة من عامه ذلك.

القران: هو أن يحرم الناسك بالحج والعمرة جميعًا، أو أن يحرم بالعمرة ثم يدخل عليها الحج.

وأعمال القارن كأعمال المفرد على الراجح، وإنما يتميز عنه بأمرين اثنين:

الأول: نية النسك فالمفرد يحرم بالحج وحده، والقارن يحرم بالحج والعمرة جميعًا.

الآخر: الهدي، فالقارن عليه هدي واجب، والمفرد ليس عليه هدي واجب، وهدي القران هدي شكران لا جبران على الراجح.

(من الفروق بين هدي الشكر، وهدي الجبر: أن هدي الشكر يأكل منه الناسك، ويهدي، ويدخر،

دون هدي الجبر فهو في مساكين الحرم دون غيرهم).

وهذه الأنساك الثلاثة كلها جائز عند جمهور أهل العلم، وإنما اختلفوا في أيها الأفضل.

والراجح أن التمتع هو أفضل الأنساك الثلاثة لمن لم يسق الهدي من خارج الحرم لقوله صلى الله عليه وسلم: «لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل، وليجعلها عمرة». رواه مسلم (١٢١٨).

أما من ساق الهدي فأفضل الأنساك في حقه القران لقوله صلى الله عليه وسلم: «قد علمتم أني أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم، ولولا هديي لحللت كما تحلون». رواه مسلم (١٢١٦).

ونحن نبدأ ببيان نسك التمتع، فببيانه تتضح باقي الأنساك.

العمرة:

للعمرة أركان، وواجبات، ومستحبات.

(والركن أو الفرض بمعنى الواجب عند الجمهور، إلا في هذا الباب.

فالواجب في هذا الباب: لابد من الإتيان به، لكنه يجبر بدم إذا تركه الحاج أو المعتمر عمدًا أو عن غير عمد كالحلق أو التقصير.

والركن: لابد من الإتيان به، لكنه لا يجبر بدم إذا تركه الحاج أو المعتمر عمدًا أو عن غير عمد بل لابد من الإتيان به.

والركن في الحج والعمرة أنواع:

فمنه: ما لا ينعقد النسك بدونه، وهو الإحرام.

ومنه: ما يفوت النسك بفوته، وهو الوقوف بعرفة إذا فات زمنه، وعندها يتحلل المحرم بعمرة.

ومنه: ما يستدرك كطواف الركن، والسعي بين الصفا والمروة عند من قال بركنيته، وهو الراجح، إن شاء الله تعالى).

أركان العمرة، وواجباتها:

أركان العمرة على الراجح ثلاثة: الإحرام، والطواف، والسعي.

وأركان الحج أربعة، الثلاثة، السابقة والوقوف بعرفة.

وواجبات العمرة اثنان: أن يكون الإحرام من الميقات، والحلق أو التقصير.

وواجبات الحج سبعة ، الواجبان السابقان وخمسة آخرى هي :

- الوقوف بعرفه الي غروب الشمس لمن وقف نهاراً .
- المبيت بمزدلفة.
- المبيت بمني.
- رمي الجمرات.
- طواف الوداع لأهل الآفاق ممن يريد الخروج من مكة.

الركن الأول: الإحرام: وهو نية الدخول في النسك، أما الإهلال (رفع الصوت به) بهذا النسك فمستحب.

وللإحرام محظورات، وهي بالجملة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: محظورات الترفه وهي:

لبس المخيط، والمراد بالمخيط ما كان مفصلاً على العضو كالأكمام، والسراويل (البنطلون)، والقمص ونحوها، وليس المقصود ما دخله خيط.

التطيب بأي نوع من أنواع الطيب في البدن أو الملبس، فإن تطيب في بدنه خاصة قبل الإحرام استصحبه بعد الإحرام بلا كراهة، بل هو مستحب.

لبس الخفاف، والمراد بالخف ما غطى الكعبين، وهما العظمان الناتئان على جانبي الرجل (كالبوت، والبيادة ونحوهما)، أما ما كان تحت الكعبين كالنعلين (الجزمة، والشبشب ونحوهما) فيباح لبسهما.

وتغطية رأس الرجل بملاصق (كالطاقية، والعمامة)، فأما ما يكون ملاصقًا كالشمسية، وسقف السيارة أو الحافلة، أو الخيمة ونحوها فإنه مباح.

تغطية وجه المرأة بمفصل عليه كالنقاب، إلا أن المرأة إذا كانت بحضرة الأجانب أسدلت على وجهها ما يستره بشرط ألا يكون مفصلاً لحديث

عائشة رضي الله عنها قالت: «كان الركبان يمرون بنا، ونحن مع رسول الله- صلى الله عليه وسلم – محرمات، فإذا حاذوا بنا أسدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها، فإذا جاوزنا كشفناه». رواه أحمد (٢٤٠٢١)، وأبو داود (١٨٣٣).

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «كنا نغطي وجوهنا من الرجال، وكنا نتمشط قبل ذلك في الإحرام» رواه ابن خزيمة في صحيحه (٢٦٩٠)، والحاكم في المستدرك (١٦٦٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

- لبس القفازين.

ويجمع هذه المحظورات حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قام رجل فقال: يا رسول الله ماذا تأمرنا أن نلبس من الثياب في الإحرام؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تلبسوا القميص، ولا السراويلات، ولا العمائم، ولا البرانس إلا أن يكون أحد ليست له نعلان، فليلبس الخفين، وليقطع أسفل من الكعبين، ولا تلبسوا شيئًا مسه زعفران، ولا الورس، ولا تنتقب المرأة المحرمة، ولا تلبس القفازين». رواه البخاري (١٨٣٨)، ومسلم (١١٧٧).

- قص الأظفار.

- إزالة الشعر من البدن.

- الحلق أو التقصير قبل التحلل.

وهذه الثلاثة قد ذكرها ابن المنذر إجماعًا في كتابه الإجماع (ص ٣٠، ٣١).

فمن فعل واحدًا من محظورات الترفه فهو مخير بين واحد من ثلاثة أشياء:

ذبح شاة، ويشترط أن يكون ذلك في الحرم لمساكينه.

إطعام ستة مساكين، ويشترط أن يكون ذلك في الحرم.

صيام ثلاثة أيام، ولا يشترط فيها مكان.

لقوله تعالى: «فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ» (البقرة: ١٩٦).

وعن كعب بن عجرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه وقمله يسقط على وجهه، فقال: «أيؤذيك هوامك؟» قال: نعم، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحلق، وهو بالحديبية، لم يبين لهم أنهم يحلون بها، وهم على طمع أن يدخلوا مكة، فأنزل الله الفدية، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أن يطعم فرقًا بين ستة مساكين، أو يهدي شاة، أو يصوم ثلاثة أيام». رواه البخاري (٤١٥٩)، ومسلم (١٢٠١).

فهذا في الحلق دون غيره، وقيست عليه سائر محظورات الترفه.

القسم الثاني من المحظورات: قتل الصيد البري، وهو قسمان:

الأول: ما له مثل من الحيوان الأهلي، فهو مخير بين واحد من ثلاث: ذبح المثل جبرًا، التصدق بقيمته طعامًا على مساكين الحرم، صيام يوم عن إطعام كل مسكين.

الآخر: ما ليس له مثل، فهو مخير بين الأمرين الآخرين.

لقوله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا» (المائدة: ٩٥).

القسم الثالث: الجماع، والمباشرة، وهذا أعظم محظورات الإحرام وله ثلاثة أحوال:

الأول: أن يكون قبل الوقوف بعرفة فالحج فاسد إجماعًا، وعليه:

أن يمضي في نسكه، كأنه لم يفسد.

أن يذبح بدنة فداءً عند الجمهور وهو الراجح، و شاة عند الحنفية، وهو مرجوح.

أن يقضي نسكه من العام المقبل.

الثاني: أن يكون قبل التحلل الأول، فحجه فاسد عند الجمهور ويترتب عليه ما سبق، وهو صحيح عند الحنفية، وعليه بدنة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (الحج عرفة.) رواه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٩٠٤)، والنسائي (٥/٢٦٤ – ٢٦٥).

الثالث: أن يكون بعد التحلل الأول، فحجه صحيح، وعليه شاة على الراجح.

يتبع، والحمد لله أولاً وآخرًا.

الحاج موسم رحمة وسلام

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الحج موسم رحمة وسلام، والمسلم حين ينوي الحج، ويُحرمُ به، يحرم عليه الرفث، والفسوق، والجدال، ومقدمات ذلك، ودواعيه، فقد قال الله تعالى: «ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ» (البقرة:١٩٧).

والمعنى: أنه من أوجب الحج على نفسه خلال هذه الشهور بأن تلبس به، وألزمه نفسه، فليصنه من الرفث والفسوق الذي هو الخروج عن حدود الشرع بفعل أي محظور يخل بإحرامه، ومن الفسوق الخصومات والفحش واللجاجة بمفهوم النص على ترك الجدال بقوله سبحانه: «وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ» (البقرة:١٩٧). والحكمة في النهي عن هذه الأشياء هي تعظيم حرمات الله، قال الله تعالى: « ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ» (الحج:٣٢).

فالحج مدرسة تربوية جامعة يحصل به تهذيبٌ للنفوس وتزكية لها وقرب من الله عز وجل، فإن الحاج حين يصل إلى بيت الله الحرام يجد نفسه وسط جمع غفير من المسلمين أتوا من كل فج عميق يؤدون مناسكهم، ومن حق بعضهم على بعض أن يجد كل منهم الأمن، والراحة، والهدوء، والسكينة، فالمكان هو أقدس الأماكن في الإسلام، والزمان ليس زمن خصام أو جدال، فيجب على الحاج التحلي بالأخلاق الإسلامية العالية، والآداب الشرعية الرفيعة، والتخلي عن كل ما يخالف الخلق والأدب مع الله سبحانه أو مع عباد الله، والحذر من إيذاء المسلمين بالقول أو الفعل.

إن الحج مدرسة لتعليم الأخلاق الكريمة، والسجايا الحميدة، والشمائل النبيلة، والمثل العليا، من الصبر والتحمل، والتعاون والإيثار، بعيدًا عن العنف والشدة، والمزاحمة والإيذاء، ولا يكون ذلك إلا باستشعار عظمة هذه الفريضة العظيمة، واستشعار قول الرسول صلى الله عليه وسلم: « فَإِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِكَ تَؤُمُّ الْبَيْتَ الْحَرَامِ لا تَضَعُ نَاقَتُكَ خُفًّا وَلا تَرْفَعُهُ إلاَّ كَتَبَ اللهُ لَكَ به حَسَنَةً، وَمَحَى عَنْكَ خَطِيئَةً، وَأَمَّا رَكْعَتَاكَ بَعْدَ الطَّوَافِ كَعَتْقِ رَقَبَةٍ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَأَمَّا طَوَافُكَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ بَعْدَ ذَلِكَ كَعَتْقِ سَبْعِينَ رَقَبَةً، وَأَمَّا وُقُوفُكَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَهْبِطُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُبَاهِي بِكُمُ الْمَلائِكَةَ، يَقُولُ: عِبَادِي جَاءُونِي شُعْثًا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ يَرْجُونَ جَنَّتِي، فَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُكُمْ كَعَدَدِ الرَّمْلِ، أَوْ كَقَطْرِ الْمَطَرِ، أَوْ كَزَبَدِ الْبَحْرِ لَغَفَرَهَا، أَوْ لَغَفَرْتُهَا، أَفِيضُوا عِبَادِي مَغْفُورًا لَكُمْ وَلِمَنْ شَفَعْتُمْ لَهُ وَأَمَّا



رَمْيُكَ الْجِمَارَ، فَلَكَ بِكُلِّ حَصَاةٍ رَمَيْتَهَا كَبِيرَةٌ مِنَ الْمُوبِقَاتِ، وَأَمَّا نَحْرُكَ فَمَذْخُورٌ لَكَ عِنْدَ رَبِّكَ، وَأَمَّا حِلَاقُكَ رَأْسَكَ فَلَكَ بِكُلِّ شَعْرَةٍ حَلَقْتَهَا حَسَنَةٌ، وَيُمْحَى عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةٌ، وَأَمَّا طَوَافُكَ بِالْبَيْتِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَإِنَّكَ تَطُوفُ وَلَا ذَنْبَ لَكَ، يَأْتِي مَلَكٌ حَتَّى يَضَعَ يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْكَ فَيَقُولُ: اعْمَلْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ، فَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا مَضَى». (صحيح الترغيب: ١١١٢).

فإذا استشعر الحاج هذا الحديث وما فيه من منح من الله عظيمة، وعطايا كبيرة، فلا تراه إلا ملبيًا أو ذاكرًا، أو داعيًا، وإلا فما يصنع من يؤمُّ بيت الله الحرام إذا لم يكن فيه ورع يحجزه عما حرَّم الله، وحلمٌ يضبط به جهله، وحسن صحبة لمن يصحب. وقد توعد الله تعالى كلَّ من يريد اعوجاجًا عن النهج المستقيم.

فقال تعالى: «وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» (الحج:٢٥)، فرتب الله سبحانه وتعالى العقاب على الهمِّ والإرادة بالسيئة، وإن لم تفعل، فكيف بمن يريد ويفعل؟ لا ريب أن الأمر أشدُّ وأنكى.

إنَّ في هذا التعبير البليغ زيادة في التحذير، ومبالغة في التوكيد، ولقد ضرب السلف الصالح- رضوان الله عليهم- أروع الأمثلة في الأدب مع حرم الله.

يقول عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «كنا نعدُّ: لا والله، وبلى والله، من الإلحاد في الحرم». وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: «لأن أخطئ سبعين خطيئة بـ (رُكبة) أحبُّ إليَّ من أن أخطئ خطيئة واحدة في الحرم». معنى: «ركبة» اسم موضع بالحجاز بين غمرة وذات عرق. وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان له فسطاطان: أحدهما في طرف الحرم، والآخر في طرف الحلِّ، فإذا أراد أن يعاتب أهله أو غلامه فعل ذلك في الفسطاط الذي ليس في الحرم، يرى أن مثل ذلك يدخل في الإلحاد فيه بظلم، فتأمل أخي الحاج فعل ابن عمر رضي الله عنهما، يتحرز من أن يعاتب أهله أو غلامه داخل حدود الحرم خشية أن يقع في الإلحاد.

ولقد كان الرجل في الجاهلية يلقى قاتل أبيه أو أخيه في البلد الحرام، فلا يعرض له.

فالمسلمون إذن هم أولى وأحق بأن يكرموا بيت الله. فيا وفد الرحمن: عليكم بالتحلي بمكارم الأخلاق، فالرفق والحلم، والأناة، خلال حثَّ عليها الإسلام، لما لها من آثار عظيمة، على الفرد والمجتمع والأمة.

يقول صلى الله عليه وسلم: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه». (البخاري: ٦٠٢٤، ٦٩٢٧).

يا وفد الرحمن: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدبروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث». متفق عليه.

يا وفد الرحمن: من أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحبُّ أن يؤتى إليه. (مسلم: ١٨٤٤).

يا وفد الرحمن: الإيثار الإيثار: فقد أثنى الله على الأنصار، فقال الله تعالى: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (الحشر:٩).

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يكتب لنا ولكل متشوق حج بيته العتيق، إنه ولي ذلك والقادر عليه.



من روائع الماضي

ضرورة توعية الحجاج قبل سفرهم للحج

إعداد/ للشيخ أحمد فهمي - رحمه الله-

رئيس التحرير الأسبق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعدُ:

فإن شهر ذي القعدة هو الشهر الذي يسافر فيه -غالبًا- أكثر حجاج بيت الله الحرام من بلادهم قاصدين مكة والمدينة للحج والزيارة.

ومن الأخطاء الشنيعة التي تُرتكب في حق الحجاج أنهم يذهبون لأداء هذه الفريضة دون أن تقدم لهم التوعية الكاملة في بلادهم قبل السفر، ودون أن تصحح مفاهيمهم حول بعض أمور هذه العبادة، ولو تمت هذه التوعية قبل السفر لكان دعمًا للجهد الكبير الذي تبذله الأمانة العامة للتوعية الإسلامية في الحج بالمملكة العربية السعودية، حيث تقوم بدور التوعية للحجاج في كل أماكن تواجدهم بالمملكة منذ وصولهم إليها حتى مغادرتهم أراضيها.

وتصحيح المفاهيم الذي أعنيه في هذه الكلمة السريعة هو ما يتعلق بسلامة التوحيد، وصيانته من صور الشرك المختلفة، فإن الإسلام يركز أولاً على جانب العقيدة قبل العبادات، بمعنى أن المسلم إذا لم يكن توحيده لله خالصًا من كل شوائب الشرك ردت عليه عباداته، وجعلها الله يوم القيامة هباء منثورًا.

ولو استعرضنا بعض المفاهيم الخاطئة لدى كثير من حجاج بيت الله الحرام لعلمنا أهمية التوعية التي نطالب بتقديمها لهم في بلادهم قبل السفر.

أولاً: يسافر بعض الحجاج وهم يتصورون أن الغرض الأسمى من هذه الرحلة زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا كل مفهومهم عن الحج، أما أعمال الحج ذاته فهي في نظرهم أمور فرعية.

ثانيًا: عند زيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم نرى كثيرًا من الحجاج يتوجهون بدعائهم مستقبلين القبر بدل القبلة، والأدهى من ذلك أن الدعاء ليس موجهًا لله سبحانه، ولكنه موجه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كأنه هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء!!

ثالثًا: بعض الحجاج يظنون أن التمسح بالنافذة المطلة على القبر أمر يدعو إليه الإسلام، لذلك ترى التزاحم وإيذاء المسلمين بعضهم بعضًا مما لا يرضاه الله ورسوله.

رابعًا: يعتقد البعض أن مقام إبراهيم عليه السلام ضريح دفن فيه خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم، ويتزاحمون حوله لاستلامه بأيديهم لنيل البركات، ولا يدرون أنه الحجر الذي قام عليه أثناء بنائه الكعبة، بل يظن الكثيرون أن المسجد الحرام دفن فيه كثير من الأنبياء والمرسلين، ويرون أن أفضلية الصلاة فيه، وأنها تعدل مائة ألف صلاة فيما سواه، إنما كانت من أجل الرسل المدفونين فيه في زعمهم. كل هذه الأمور وغيرها كثير تنافي التوحيد الخالص وتحبط عمل فاعلها، فضلاً عن جهل أكثر الحجاج بجميع المناسك. فهذه تنافي التوحيد وتحبط العمل.

ونسأل الله تعالى أن يكون عملنا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يوفقنا لما فيه خير الإسلام والمسلمين. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

لبيك اللهم لبيك

الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة

إعداد/ للشيخ محمد علي عبد الرحيم
رحمه الله
الرئيس العام الأسبق لجمعية أنصار السنة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعدُ:

لما نزل قوله تعالى: «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ» (البقرة:١٩٧)، بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأشهر، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: هي شوال، وذو القعدة، والعشر الأولى من ذي الحجة.

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا ينبغي لأحد أن يحرم إلا في أشهر الحج، إلا المعتمر».

ولمناسبة إقبال موسم الحج تعين أن أبين الأمور التي تهم القارئ بالنسبة لركن عظيم من أركان الإسلام.

حكمة الحج:

إن في الحج مظهرًا من مظاهر عز الإسلام، وتوحيد الكلمة بين المسلمين، لو فطنوا لحكمة اجتماعهم في المشاعر العظام لنبذوا أسباب اختلافهم، وحققوا وحدتهم، وتم التعارف بينهم، الذي من أجله شرع الله صلاة الجماعة والجمعة والعيدين.

وأعظم من ذلك ما اقتضته حكمة العزيز الحكيم، باجتماع المسلمين من المشارق والمغارب بالبلد الأمين، مرة كل عام، ليتدارسوا أحوالهم، ويوحدوا كلمتهم، فيعملوا على نصرة دينهم، وإعلاء كلمة الله تعالى، لتكون لهم العزة والكلمة العليا، «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ» (المنافقون:٨).

ترى الناس في مشاهد الحج أجناسًا مختلفة من البشر، تعددت لغاتهم، وتباينت ألسنتهم، ومع ذلك فلا فرق بين غني وفقير، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين العامة وأرباب السلطان؛ ذلك لأن الحجاج يشعرون أنهم إخوة متقاربون متعاطفون، انحسر عنهم كبرياء الألقاب، وعزة الأنساب، يقفون في صعيد واحد، فمن أمم متباينة، وشعوب متباعدة، فإذا قلوبهم متآلفة، تنبض بتوحيد الله، وتهتف ألسنتهم: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

معنى التلبية:

معنى لبيك اللهم لبيك: إجابة منا لك يا ربنا بعد إجابة، لقد ناديتنا فأتيناك، وأمرتنا فأطعناك، وكل نعمة مصدرها منك، فالحمد لك وحدك، لا رب سواك، ولا شريك لك في ملكك، وهذا هو منتهى الإخلاص في العبادة.

التعجيل بالحج:

إذا كان الحج خامس أركان الإسلام، فليس

معنى هذا أن نأخذه بالتراخي والفتور، بل ينبغي على كل من استطاع إليه سبيلاً أن يتعجل به، فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أراد الحج فليتعجل، فإنه قد يمرض المريض، وتضل الراحلة، وتعرض الحاجة». رواه أحمد وابن ماجه.

وعن ابن عباس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تعجلوا بالحج فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له». رواه أحمد.

ومن هنا أخذ بعض الأئمة- كمالك رحمه الله- أن الحج مفروض على الفور عند الاستطاعة. روى سعيد بن منصور في سننه عن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى الأمصار، فينظروا كل من كان له جدة (بكسر الجيم وفتح الدال) ولم يحج، فيضربوا عليهم الجزية، ما هم بمسلمين».

وفي ذلك تغليظ شديد لعظم ذنب ترك فريضة الحج.

الحج المبرور:

من مقاصد الحج: التوبة إلى الله، والرجوع إليه من جميع الذنوب والآثام، والابتهال إلى الله تعالى بالدعاء أن يمنح الحاج خيري الدنيا والآخرة، ويتجلى ذلك في الدعاء القرآن: «رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ» (البقرة: ٢٠٠- ٢٠١)، فالحج المبرور هو الذي يستجاب فيه دعاء الحاج، ويكون جزاؤه الجنة.

ولا ينعقد الحج المبرور إلا إذا حسنت النية، وخلص العمل، دون شهرة ولا رياء ولا سمعة- كما يفعل البعض في هذا الزمان، جريًا وراء لقب (حاج) أو لحسن الأحدوثة بين الناس- فإن ذلك رياء وشرك، والله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك، فمن أشرك في العمل غير الله تركه وشركه، كما أن الله لا يقبل العمل من مسمع ولا من مراء ولا منان، قال الله تعالى: «وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ» (البينة:٥) أي: بعيدين عن الشرك، كما أن الحج المبرور لا يحمل إلا بالنفقة الطيبة والمال الحلال، وقد أحسن من قال:

إذا حججت بمال أصله سحت
فما حججت ولكن حجت العير
ما يقبل الله إلا كل صالحة
ما كل من حج بيت الله مبرور

ويترتب على الحج المبرور ما يلي:

١- حصول المغفرة من الله عز وجل، إذا حسنت النية وصلح العمل: «من حج فلم يرفث ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

٢- لما كان الحج نوعًا من الجهاد- منح الله الحاج ما يمنح المجاهد في سبيل الله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ترى الجهاد أفضل الأعمال، أفلا نجاهد؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «أفضل الجهاد حج مبرور». رواه البخاري.

٣- الكسب المضاعف والربح العظيم الذي وعد به رب العالمين: «وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ» (التوبة:١٢١)، ويقول عز وجل: «وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ» (البقرة:٢٧٢).

النهي عن سفر المرأة بدون محرم في الحج وغيره:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يقول: «لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها

ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم». فقام رجل، فقال: يا رسول الله، إن امرأتي خرجت حاجة، وإني اكتُتبت في غزوة كذا. قال: «فانطلق فحج مع امرأتك». متفق عليه.

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسافرن امرأة ثلاثة أيام إلا ومعها ذو محرم». متفق عليه.

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لامرأة أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم». متفق عليه.

والمعنى أنه يحرم على المرأة أن تسافر بدون محرم أو زوج، سفرًا يترتب عليه المبيت في الطريق وحدها، سواء كان السفر مباحًا أو لعبادة كسفر الحج، ويشترط في المحرم أن يحرم عليه نكاحها على التأبيد كالأب والأخ والعم والخال.

هذا هو الإسلام الحق الذي يريد للمرأة أن تكون مُكرَّمة في سفرها، يوم بخدمتها زوجها أو محرمها، ويحمل متاعها، ويسهر على راحتها، ويقضي لها شئونها ويرعاها، ويعتبر ذلك تكريمًا للمرأة لا انتقاصًا من حقوقها.

وقد رأينا في أسفارنا نوعين من النساء:

١- امرأة يصحبها محرمها في سفر، فلا تتعرض لمتاعب السفر، فيحمل المتاع، ويهيئ لنا المكان، ويوفر لها وسائل الراحة.

٢- امرأة تسافر وحدها، فتتعرض لوعثاء السفر ومتاعبه، وتستجدي الرجال لخدمتها وحمل متاعها، وقضاء لوازمها، فيهدر حياؤها، وتمتهن كرامتها.

ولو فطن دعاة الانحلال إلى ذلك، لما وقعت المرأة في فتنة لها شر مستطير.

وصفوة القول: أن سفر المرأة وحدها، واجتماعها بالرجال في الفنادق ووسائط النقل والمؤتمرات، يعطينا فكرة عن الحكمة في منع المرأة من السفر بلا محرم، وأقل ما فيه سد ذريعة الاختلاط لما فيه من الإغواء والفساد.

وإذا كانت النسوة في عصرنا الحاضر، يخرجن بملابس تحدد الجسد وتفصّله- بتشديد الصاد- ولا يعرفن للحياء معنى، ولا للشرف إلا اسمًا، فإن الإسلام أراد بالمرأة أن تترفع عما يُنقص من قدرها ظعنًا وإقامة، لا سيما ونحن نجد في سفرنا كشفًا للصدور والنحور، والأذرع والسيقان.

فواجب على المرأة المسلمة أن تترفع عن السفر وحدها، وإذا لم تجد محرمًا فقد سقط عنها الحج ولم تستطع إليه سبيلاً. بهذا أخذ أكثر العلماء- بألا تحج المرأة إلا مع زوج أو ذي محرم- ومنهم أحمد بن حنبل وأبو حنيفة والنخعي وإسحاق، وأما من أجاز خروجها للحج مع رفقة نسائية مأمونة فلا دليل معه، ولله الحجة البالغة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

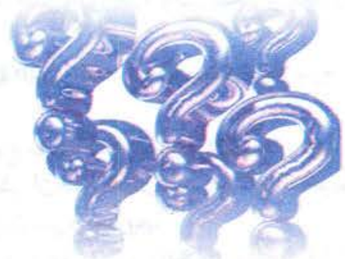
تعزية واجبة

أسرة تحرير مجلة التوحيد والمركز العام يتقدمون بخالص العزاء والمواساة للشيخ عبد الله الطاهر، رئيس فرع هرية رزنه بالزقازيق شرقية في وفاة والدته ، رحمها الله رحمة واسعة، وإنا لله وإنا اليه راجعون.

التبرير والقاء المعاذير

الحلقة الثالثة

إعداد / المستشار/ أحمد السيد علي





الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه... أما بعد:

لا يزال الحديث مستمرًا عن التبرير وإلقاء اللوم، وتحدثنا عن الفرق بين التبرير المقبول وغير المقبول، ونكمل فنقول وبالله تعالى التوفيق:

خامسًا: تبرير فعل الحرام:

وقد وقع أقوام في الحرام وبرروه بإتباع نهج الآباء، وبأن الله أمرهم به، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾. (الأعراف ٢٨).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد بن الأسود، قال: (انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة، ومعها كتاب فخذوه منها). فانطلقنا تعادى بنا خيلنا، حتى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا حاطب ما هذا).

قال: يا رسول الله لا تعجل علي، إني كنت امرأ ملصقا في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة، يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفرا ولا ارتدادا، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد صدقكم). قال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال: (إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم). قال سفيان: وأي إسناد هذا». (رواه البخاري).

فحاطب بن أبي بلتعة ارتكب فعلاً محرمًا يكمن في إبلاغه قريشًا بعزم النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة، ثم برر فعله هذا بأنه أراد أن يتقرب من سادات قريش حتى يحموا أقاربه الموجودين بمكة، ولم يقتنع النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المبرر، وإنما سامحه لأنه شهد معركة بدر، ولأن الفعل وإن كان جرمًا إلا أنه لا يشكل حدًا.

ومن أمثلة تبرير فعل الحرام الآن: تبرير مصافحة المرأة الأجنبية المحرم باتفاق الأئمة الأربعة على تحريم

مصافحتها، وقالت الحنابلة منهم: سواء كانت المصافحة من وراء حائل أو لا. فعن معقل بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له» (رواه الطبراني وصححه الألباني) ولا شك أن المصافحة من المس. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «والله ما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء قط إلا بما أمره الله تعالى، وما مست كف رسول الله صلى الله عليه وسلم كف امرأة قط، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن البيعة: «قد بايعتكن كلاما». (أخرجه ابن ماجة وصححه الألباني).

وعن أميمة بنت رقيقة رضي الله عنها قالت: «أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في نسوة من الأنصار نبايعُه، فقلنا: يا رسولَ الله، نبايعُكَ على أن لا نشركَ بالله شيئًا، ولا نسرقَ، ولا نزنيَ، ولا نأتيَ ببهتانٍ نفتريه بين أيدينا، وأرجلنا، ولا نعصيَك في معروف. قال: فيما استطعتُنَّ وأطَقْتُنَّ. قالت: قلنا: الله ورسولُه أرحمُ بنا. هلمّ نبايعْك يا رسولَ الله، فقال رسولُ الله-صلى الله عليه وسلم: إني لا أصافحُ النساءَ! إنما قولي لمائة امرأة، كقولي لامرأةٍ واحدةٍ أو مثل قولي لامرأة واحدة». (رواه النسائي وصححه الألباني) فلا يصح أن يبرر أحدهم فعله بأن كل الناس يصافحون النساء، وأن أجدادهم وآباءهم كانوا يفعلون ذلك حتى ظهرتم أنتم وحرمتم المصافحة!!

سادسًا: تبرير فعل المكروه:

وقد يفعل المسلم المكروه فيبرر فعله بمبررات واهية، فمثلا: مسألة الأكل والشرب باليد الشمال قد ورد النهي الصريح عنها في أحاديث صحاح فقد روى مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله».

وقد اختلف أهل العلم في توجيه النهي الوارد: فذهب أكثر العلماء وهو مذهب الأئمة الأربعة إلى أن النهي على سبيل الكراهة فيكره الأكل والشرب بالشمال ولا يحرم وحجتهم:

أن هذا النهي من باب الأدب والإرشاد وما كان من هذا الباب فمحمول على التنزيه كنظائره لأن مقصود الشارع التكريم، وقد تقرر قاعدة الشارع في استعمال اليمين في الأمور التي حقها التكريم.

وذهب قلة إلى أن النهي على سبيل التحريم فيحرم الأكل والشرب بالشمال ويأثم الإنسان بذلك قال بذلك ابن عبد البر وابن حزم وابن حجر وحجتهم في ذلك:

١- أن الأصل في النهي التحريم إلا بصارف ولا يوجد صارف.

٢- ولأن الشارع شبه هذا الفعل بالشيطان وهذه قرينة تدل على أن هذا الفعل محرم؛ لأن التشبيه في هذا المقام يقتضي التحريم.

٣- ولأن النبي دعا على الأكل بالشمال بالشلل وهذا يدل على تحريم هذه الفعلة.

والصحيح مذهب الأكثر وهو القول بالكراهة وذلك للآتي:

١- لأن النهي إذا كان يرجع إلى معنى الأدب والإرشاد ولا يتضمن التعدي على ملك الغير فيحمل على الكراهة.

٢- ولأن معنى هذا النهي يحمل على مقصد استحباب اليمين في الطيبات لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعجبه التيمن في تنعله وترجله وفي شأنه كله كما ثبت في الصحيح ولذلك ورد في الصحيحين: «يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك» قال القرطبي: «كل هذه الأوامر من المحاسن المكملة والمكارم المستحسنة والأصل فيما كان من هذا الترغيب والندب».

٣- ولأن تشبيه الفعل بصفات الشيطان لا تدل على التحريم مطلقا وانما مقصود الشارع بهذا التشبيه الذم والتنفير وأقلها الكراهة، وتختلف مرتبة هذه الأفعال منها ما هو محرم لقرينة ومنها ما هو مكروه لوجود أدلة تفيد جواز فعلها كالسفر منفردا وترك القيلولة والوقوف بين الظل والشمس ونحو ذلك مما ورد أنها صفات للشيطان في لسان الشرع ومع ذلك فهي مكروهة عند العامة فليس كل تشبه به يقتضي التحريم.

٤- وأما دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على من عصاه بالشلل فلا يدل على تحريم الأكل بالشمال وانما دعا عليه بسبب الكبر واستعلائه على طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا شك أن الكبر من الكبائر الموجبة دخول النار.

أما إذا لم يستطع استعمال اليمين في الأكل والشرب

لعذر منعه من ذلك كمرض وجراحة ونحو ذلك جاز له استعمال الشمال بلا كراهة ولا يدخل في النهي لأنه معذور ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها». اهـ.

وعن سلمة بن الأكوع: «أن رجلاً أكل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بشماله فقال كل بيمينك قال لا أستطيع قال لا استطعت- ما منعه إلا الكبر- فما رفعها إلى فيه» (رواه مسلم) فهذا الرجل قد برر فعل المكروه بعدم استطاعة الأكل بيمينه، والحقيقة أنه كان قادرا على ذلك ولكن منعه الكبر، فكان جزاؤه أن دعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم فشلت يده.

ومن أمثلة تبرير فعل المكروه الآن: أكل بعض الناس وشربهم بشمالهم ثم يبررون ذلك بما أصطلحوا على تسميته «الإتيكيت» فإمساك السكين باليمين والأكل بالشوكة بالشمال، ووصمهم من ينكر عليهم بالرجعية والتخلف، وأن العالم قد تقدم وصعد إلى الفضاء وأنتم مازلتم تنكرون على من أكل بشماله!!

الوقفة الرابعة: سوء عاقبة التبرير:

التبرير نتيجته مُرَّة على صاحبه، فهو بمداومته على التبرير ينصرف عن إصلاح ذاته، كما ينصرف عن تفقد عيوب نفسه، وبالتالي يرى أنه دائما على خير وإذا وصل العبد إلى هذا الحال صعب إصلاحه وفقد انسجامه الذاتي؛ لأنه في الواقع يعيش حالة من الحرب النفسية الداخلية هو فيها الجلاد والضحية.

إن صاحب هذا المرض يكون وبالا على نفسه وعلى الآخرين، كما أنه يكون شديد الخصومة كثير الجدل وعندئذ يكون من أبغض الخلق إلى الله تعالى، ففي الحديث: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» (رواه البخاري).

ويخشى على هؤلاء من أن يكونوا ممن ورد فيهم الأثر عن الحسن البصري- رضي الله عنه قال: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحسن الظن بالله تعالى وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل.

الوقفة الخامسة: من أسباب الوقوع في التبرير:

«إن العقبة الرئيسة في التبرير هي عدم الصراحة مع النفس، ذلك أننا نفشل في أن نحدث أنفسنا عن واقعنا، وهذا يرجع إلى أننا تعلمنا منذ طفولتنا وصبانا أن نرتفع إلى مستويات أخلاقية، وصفات سامية، وعالية، لا يسهل علينا الوصول إليها غالباً.

ولذلك نعمد إلى إخفاء حقيقتنا في إطار من الأكاذيب على النفس حددته أساليب تربيتنا الأولى (قراءة في مشكلات الطفولة).

كما قد يكون التبرير راجعًا إلى كِبْر أصاب القلب يصعب معه الاعتذار أو الظهور بمَظهر الضعف في ظل هذا المتكبر. ومن أسبابه أيضا حب الدنيا والركون إليها ولعل هذا السبب تحديدا هو ما يحمل الكثيرين على ارتكاب ما نهى الله عنه مبررين ذلك بأسباب واهية، فمن يأكل الربا يزعم أنه مضطر ولو نظرت في حاله لوجدته غالبا غير مضطر، بل ربما غير محتاج أصلا، وقس على ذلك كثيرا من المخالفات التي تقع في عصرنا ويحاول أصحابها تبريرها». اهـ.

الوقفة السادسة: علاج التبرير وإلقاء المعاذير:

«لا شك أن الصدق مع النفس هو الطريق الواضح، والسبيل اليسير، حتى لا ندخل في متاهات التبرير، فمحاسبة النفس على التقصير والوقوف على خطئها يقيها كثيراً من مصارع السوء، ولا يجعلنا نراكم الأخطاء، والواقع أن الصدق مع الذات من أعلى مراتب الصدق، وأصعبها، وأرجو أن نتدبر قصة توبة الصحابي الجليل كعب بن مالك رضي الله عنه، فإنما أنجاه الله بصدقه.

كما أن من أهم وسائل العلاج مطالعة سير وأحوال من وقعوا في هذه الآفة، وانظر إلى هؤلاء القوم من بني إسرائيل لما سيطرت عليهم العقلية التبريرية فاحتالوا على حكم الله تعالى واصطادوا يوم السبت مسخهم الله قردة وخنازير: «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ». (البقرة ٦٥).

إنك حين تتدبر هذه العقوبة لمن كان متصفا بهذه الصفة مجترئا على حدود الله تعالى لا شك ستراجع نفسك مرات ومرات قبل الإقدام على فعل تعلم سوء عاقبته.

والحمد لله رب العالمين.

واحة التوحيد

من نور كتاب الله

من صفات الإنسان في القرآن

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾

(الإسراء: ٨٣، ٨٤)

من دلائل النبوة

عن السائب بن يزيد قال: ذهبت بي خالتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله! إن ابن أختي وَجِع. فمسح رأسي ودعا لي بالبركة، ثم توضأ فشربت من وضوئه، ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل زر الحجلة. (متفق عليه).

من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

بشرى للمصلي

عن عثمان- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها. إلّا كانت كفّارة لما قبلها من الذّنوب. ما لم يؤت كبيرة. وذلك الدّهر كلّه». (صحيح مسلم).

من فضائل الصحابة

عن أيوب السختياني قال: "دخلت المدينة والناس متوافرون؛ القاسم ابن محمد وسليمان وغيرهما فما رأيت أحدًا يختلف في تقديم أبي بكر وعمر وعثمان". (السنة للخلال)

من أقوال السلف

عن ابن مسعود- رضي الله عنه- أنّه كان يخطب ويقول: «يا أيها النّاس، عليكم بالطّاعة والجماعة، فإنّهما حبل الله الّذي أمر به» (الدر المنثور)

من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم

عن أبي بكر رضي الله عنه قال: "قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، علّمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: «قل اللهمّ إنّي ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذّنوب إلّا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنّك أنت الغفور الرّحيم" (صحيح البخاري).

إعداد/ علاء خضر

خُلق حسن فالزمه

قيل: "من عادة الكريم إذا قدر غفر، وإذا رأى زلّة ستر" (نضرة النعيم)

خلق سيء فاحذره

قال الحسن بن عليّ-رضي الله عنهما-: اعلموا أنّ الحلم زينة، والوفاء مروءة، والعجلة سَفَه، والسَفر ضعف، ومجالسة أهل الدّناءة شَيْن، ومخالطة أهل الفسق ريبة. (كنز العمال)

حكم ومواعظ

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «والّذي لا إله غيره ما أعطي عبد مؤمن شيئًا خيرًا من حسن الظّنّ بالله عزّ وجلّ. والّذي لا إله غيره، لا يحسن عبد بالله عزّوجلّ الظّنّ إلّا أعطاه الله عزّ وجلّ ظنّه، ذلك بأنّ الخير في يده» (حسن الظن لابن أبي الدنيا).

من معاني الأحاديث

في حديث النفقة «وابدأ بمن تعول» أي: بمن تمون وتلزمك نفقتُه من عيالك، فإن فضل شيء فليكن للأجانب. يقال: عالَ الرجل عياله يعولهم إذا قام بما يحتاجون إليه من قوت وكسوة وغيره. (النهاية لابن الأثير)

أحاديث باطلة لها آثار سيئة

(الفقر شَيْن عند الناس، وزَيْـــن عنـد الله يـوم القيامة) الحديث موضوع أخرجه الديلمي.(السلسلة الضعيفة للألباني)

من معاني اللغة

الفرق بين الصمت والسكوت؟

الصمت يتولد من الأدب والحكمة ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾ (الأعـراف:١٩٣). والسكوت يتولد من الخوف ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ (الأعراف:١٥٤).

من حكمة الشعر

لا تعجلنّ فليس الرّزق بالعجل
الرّزق في اللّوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرّزق يطلبنا
لكنّه خُلق الإنسان من عجل.
(صفوة الأخيار)



الحلقة (٨٤)

أثر السياق في فهم النص

تنوع قرائن السياق وأثره على الأحكام الفقهية

المسح على الجوربين

إعداد/ متولي البراجيلي

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

رأينا في عدد رجب ١٤٣٧هـ أن حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه في المسح على الجوربين فيه خلاف واسع بين أهل العلم. (وهو الحديث العمدة في هذا الباب). ما بين رده على أنه حديث شاذ - وهذا عليه أكثر المتقدمين - وبين قبوله على أنه زيادة ثقة، غير مخالفة لما رواه الآخرون، واعتبر بعض أهل العلم أنه حديث آخر مستقل.

وزيادة الثقة: هي إذا تفرد الراوي بزيادة في الحديث عن بقية الرواة عن شيخ لهم.

وفي قبولها أو عدم قبولها خلاف مشهور بين أهل العلم، هل تقبل أم ترد على أنها شاذة، وقد حكى الخطيب عن أكثر الفقهاء قبولها، وردها أكثر المحدثين، ومن الناس: من قال: إن اتحد مجلس السماع لم تقبل، وإن تعدد قبلت (انظر الباعث الحثيث لابن كثير ص٦١-٦٢)، وسننظر في قرائن أخرى، تعضد العمل بما في متن حديث المغيرة، من جواز المسح على الجوربين.

أولاً: قرائن لفظية منفصلة:

قول عمر وعلي رضي الله عنهما بجواز المسح على الجوربين وإن كانا رقيقين (انظر المجموع شرح المهذب للنووي ١/٥٠٠).

وعمر وعلي رضي الله عنهما من فقهاء الصحابة من ناحية، ومن أقرب الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم من ناحية، وكذلك فنحن مأمورون باتباع هديهما كما في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وفيه:... فإنه من يعش منكم يرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ...». (صحيح سنن أبي داود وغيره).

فما نقل عنهما من جواز المسح، تضمن أمرين، أولهما: جواز المسح على الجوربين.

ثانيهما: عدم اشتراط أية شروط في الجوربين.

٢- ما ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه، ورواه الأزرق بن قيس: رأيت أنس بن مالك أحدث فغسل وجهه ويديه ومسح برأسه، ومسح على جوربين من صوف، فقلت: أتمسح عليهما؟ فقال: إنهما خفان ولكنهما من صوف (الدولابي في الكنى والأسماء ح ١٠٠٩).

وجه الدلالة: أن أنسا رضي الله عنه يرى المسح على جوربي الصوف، وأجاب السائل بذلك، وأنس رضي الله عنه خدم رسول الله عشر سنوات في المدينة، كما بالحديث: خدمت رسول الله صلى الله عشر سنين... (صحيح مسلم) مما يعني قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومشاهدته في غالب أحواله.

٣- ما ورد عن ثوبان رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية، فأصابهم البرد، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمرهم أن يمسحوا على العصائب والتساخين (صحيح سنن أبي داود وغيره).

ووجه الدلالة هي المسح على التساخين، وهي لفظة عامة تشمل الخفين ونحوهما، وما قام مقامهما من تسخين القدمين كالجوارب (انظر الشرح الممتع ١/٢٣٣)، فهذا الحديث وإن كان عامًا - في لفظه- إلا أنه شاهد قوي للمسح على الجوربين.

ثانيًا: قرائن عامة:

١- قول وفعل الصحابة رضي الله عنهم:

فقد ذكر القاسمي عدد ستة عشر صحابيًا - رضي الله عنهم - ثبت عنهم المسح على الجوربين وغيرهم من التابعين (انظر المسح على الجوربين والنعلين ص٤٠).

والسؤال: هل هذا أمر تعبدي أم لا؟
والجواب أنه أمر تعبدي، بمعنى أنه لا مجال فيه للرأي والاجتهاد، وهذا في الصلاة، التي هي خير أعمال العبد بعد الشهادتين.
وقد وضع العلماء شروطًا للعمل بقول الصحابي، ملخصها:
١- أن ينتشر قوله ويعلم.
٢- ألا يخالفه أحد من الصحابة (وهذا يعد من قبيل الإجماع السكوتي).
٣- ألا يخالف نصًا.
(فائدة: إذا خالف قول الصحابي نصًا- غير قابل للتأويل- عُمل بالنص بالإجماع، ومثال ذلك: أن علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما كانا يريان أن المرأة الحامل إذا توفي عنها زوجها، اعتدت بأطول الأجلين - بأربعة أشهر وعشرًا، أو الحمل أيهما أطول- وهذا خالف نصًا وهو حديث سبيعة الأسلمية لما نفست (وضعت حملها) بعد ليال من موت زوجها، فأذن لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتزوج (والحديث في صحيح البخاري».
فإذا تحققت فيه هذه الشروط صار حجة عند الجمهور، أما إذا خالفه صحابي آخر، فهنا لا يكون قوله حجة (انظر معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة للجيزاني ص٢٢٢-٢٢٧).
وفي مسألتنا يوجد نص مختلَف فيه، وهو حديث المغيرة، إلى جانب نصوص أخرى عامة، أو خاصة في المسح على الجوربين لكنها ضعيفة. فهؤلاء الصحابة ما كانوا ليمسحوا على الجوربين إلا وقد وقفوا على سُنة فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم.
والجمهور يقولون بحجية قول الصحابي الذي لا مجال فيه للرأي، واعتبروه في حكم المرفوع بشروط؛ أن يكون في الغيبيات أو العبادات أو العقائد، وعلى أن لا يُعرف عن هذا الصحابي الأخذ من الإسرائيليات، وأن لا يخالفه صحابي آخر.
فقد ذكر ابن قدامة بعض الصحابة الذين ثبت عنهم المسح على الجوربين، وقال: «ولم يظهر لهم مخالف في عصرهم، فكان إجماعًا». (انظر المغني لابن قدامة ٢١٥/١).
وهذه الشروط متوافرة في المسح على الجوربين.
لذا وجدنا ابن القيم بعد أن ذكر الصحابة الذين ثبت عنهم المسح على الجوربين، يقول: «والعمدة في الجواز على هؤلاء - أي الصحابة - رضي الله عنهم-، لا على حديث أبي قيس.
وكذلك نص أحمد على جواز المسح على الجوربين، رغم أنه أعلّ حديث أبي قيس، والعمدة عنده هؤلاء الصحابة».
ويقول ابن القيم: «الذين سمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم وعرفوا تأويله، مسحوا على الجوربين، وهم أعلم الأمة بظاهر القرآن ومراد الله منه» (انظر عون المعبود وحاشيته تهذيب السنن لابن القيم ١٨٧/١-١٩٠).

٢- القياس:

يثار سؤال هل يستخدم القياس في الأحكام الشرعية؟
فقد قال بعض أهل العلم: إنه لا قياس في الأحكام الشرعية؛ لأن في الأحكام الشرعية ما لا يعقل معناه، وبالتالي يتعذر إجراء القياس عليه.
وأجيب عن هذا بأن كل ما جاز إثباته بالنص جاز إثباته بالقياس، فالشريعة ليس بها شيء يخالف القياس، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: من كان متبحرًا في الأدلة الشرعية أمكنه أن يستدل على غالب الأحكام الشرعية بالنصوص والأقيسة (مجموع الفتاوى ٢٨٩/١٩).
وقال ابن القيم: «ليس في الشريعة شيء يخالف القياس، ولا في المنقول عن الصحابة الذي لا يُعلم لهم مخالف، وإن القياس الصحيح دائرٌ مع أوامرها ونواهيها وجودًا وعدمًا» (إعلام الموقعين ٣٩/٢-٤٠).
فعند قياس الجوربين على النعلين، فإنه لا يظهر بينهما فرقٌ مؤثر، والعلة واحدة وهي مشقة النزع وغسل الرجلين بالماء ثم إدخالهما في الخف مرة أخرى، وهذا موجود في الجوربين، فالحكمة التي شرع من أجلها المسح على الخفين موجودة في المسح على الجوربين.
لذا نُقل عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: المسح على الجوربين كالمسح على الخفين. وتلقى نافع ذلك عنه، فقال: هما بمنزلة الخفين (قال الألباني بصحة الأثرين، انظر المسح على الجوربين ص٥٦-٥٨).
إلا أن فريقًا من أهل العلم ضيَّقوا العلة ووضعوا

شروطًا لصحة المسح على الجوربين، منها أن يكون نعلهما من الجلد، وأن يكونا صفيقين، وأن يمكن تتابع المشي عليهما وغير ذلك، وقالوا: إن المسح على الخفين على خلاف القياس، فلا يصح إلحاق غيره به، إلا أن يكون في معناه، ولا يكون الجورب في معنى الخف إلا إذا كان مجلدًا أو منعلاً. وأجيب عن هذا، أن المسح على الجوربين لم يلحق بالخفين اعتمادًا على القياس وحده، بل اعتمادا على ما ورد من أحاديث عامة وخاصة في المسح على الجوربين، إضافة إلى ما ثبت من فعل الصحابة وأقوالهم، فلو لم يكن إلا فعل الصحابة وأقوالهم لكفى به دليلاً. وما ذكر من هذه الشروط فهو من اجتهاد العلماء، ولا نص صريح في هذه الشروط، لذا فقد اختلفوا فيها.

ففي حديث المغيرة رضي الله عنه، لم ينقل لنا صفة الجوربين اللذين مسح عليهما الرسول صلى الله عليه وسلم. وكذلك الصحابة رضي الله عنهم الذين نقل عنهم المسح على الجوربين، لم ينقل عنهم اشتراط أن يكونا منعلين أو مجلدين أو غير ذلك، يقول المباركفوري: «هذا القول لا يثبت إلا بعد أن يثبت أن الجوربين اللذين مسح عليهما النبي صلى الله عليه وسلم كانا مجلدين، ولم يثبت هذا قط» (انظر تحفة الأحوذي ٢٨٦/١).

٣- العرف اللغوي:

هو دلالة اللفظ في اللغة، ويُعتد به طالما لم توجد ضوابط شرعية في النص، فلو وجدت الضوابط الشرعية، لا يُلتفت إلى العرف. فكما هو مقرر فإن الحقيقة الشرعية إذا وُجدت فهي مقدَّمة على الحقيقة اللغوية (العرف اللغوي) فاللفظ إن بقي على أصل وضعه لغة، فهذه هي الحقيقة اللغوية (العرف اللغوي)، فإن غيَّره الشرع انتقل إلى الحقيقة الشرعية.

يقول شيخ الإسلام: «إن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عُرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي صلى الله عليه وسلم، لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة وغيرهم..».(انظر مجموع الفتاوى ٢٨٦/٧-٢٨٧).

ولا نعلم أنه ورد توصيف شرعي للجوربين، سواء في الأحاديث التي رُفعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أو الآثار التي صحت عن الصحابة رضي الله عنهم، لذا فإننا استخدمنا العرف اللغوي في معنى الجوربين لغة عند العرب. فهل ثبت أن الجورب في لغة العرب، هو ما كان مجلدًا بجلد أو له نعلان، أو له شروط أخرى؟ وبالتالي يمكن تقييد إطلاق الجوربين بالعرف اللغوي؟ فقد رأينا أن الجورب لغة: هو اسم لما يُلف على القدم ليقيها، وقيل: غشاءان للقدم من صوف يُتخذ للدفء، وقيل الجورب: الغلالة. (انظر عدد رجب ١٤٣٧هـ).

٤- تعدي الرخصة إلى مثل معناها:

فالذين ردوا المسح على الجوربين أو وضعوا له قيودًا وأن يكون مجلدًا أو منعلاً أو غير ذلك. قالوا بأن المسح على الخفين رخصة، على خلاف الأصل وهو غسل القدمين، وبالتالي فإن الرخصة لا تتعدى محلها، فالرخصة استثناء من القاعدة، ولا يُقاس على الاستثناء.

ويجاب على ذلك أن سبب الترخيص في المسح على الخفين هي الحاجة إلى ذلك، وهي موجودة في المسح على غير الخفين، ومثال لتعدي الرخصة إلى مثل معناها: ثوب المرضعة لولد غيرها، إذا أصابه بول الرضيع هل يعفى عنه في الصلاة للمشقة، قياسًا على ثوب الأم؟ الصحيح العفو إن اضُطرت إلى الإرضاع، أو لم يقبل الولد غيرها، بشرط أن تجتهد في التوقي كالأم (انظر أصول الفقه والقواعد الفقهية د. محمد مصطفى الزحيلي ٩١٧/٢).

٥- حمل الدليل على عمومه ما لم يأت مخصص له:

وحديث المغيرة رضي الله عنه- إذا قلنا به - إضافة إلى الآثار التي صحت عن الصحابة وردت على العموم ولم يأت لها مخصِّص، بل رأينا من الصحابة كعمر وعلي رضي الله عنهما يريان جواز المسح على الخفين الرقيقين. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - بعد كلامه عن العمل بالعام والخاص-: «فإذا غلب على الظن انتفاء ما يعارضه (أي: يعارض العام) غلب على الظن مقتضاه (أي: العمل بالعام)، وهذه الغلبة (غلبة الظن) لا تحصل للمتأخرين في أكثر العمومات إلا بعد البحث عن المعارض (الخاص)». (انظر مجموع الفتاوى ١٦٦/٢٩-١٦٧).

ونحن لم نقف على تخصيص لعموم حديث المغيرة رضي الله عنه أو للآثار التي صحت عن الصحابة رضي الله عنهم، لذا قلنا بالعموم.

وبعد، فمن خلال استعراضنا على مدى ثلاث حلقات لمسألة المسح على الجوربين، والنظر في القرائن، نرى-والله أعلم - جواز المسح على الجوربين بدون شروط فيهما، هذا وللحديث بقية، والحمد لله رب العالمين.

فتاوى

الحرص على النفقة الحلال

س١: ما الذي يشرع لمن أراد الحج والعمرة؟

من عزم على الحج، يشرع له قضاء ديونه الحالَّة، أو استئذان أهلها إن عرف منهم الحرص وشدة الطلب، ثم يكتب وصايا وما في ذمته، وما له أو عليه، ثم يصلّي صلاة الاستخارة، ويطلب من ربّه أن يختار له الأصلح ويمضي لما ينشرح له صدره، ويختار الرفقة الصالحين من أهل العلم والدين، ويستصحب معه من الكتب العلمية ما يستفيد منه في أعمال الحج أو غيرها، ويفيد إخوانه ويكثر من النفقة والنقود والزاد، حتى يغني نفسه عن الحاجة، ويودع أهله وأصحابه عند السفر، ويحرص على أن يكون عمله خالصًا ولا يريد بحجّه وعمرته إلا وجه الله.

ثم يحرص على أن تكون نفقته من الكسب الحلال الطيب، ويحرص في سفره ذهابًا وإيابًا على الإتيان بنوافل العبادات وواجبات الدين، ويفيد إخوته ويستفيد من أهل العلم، ويحرص على تكميل واجبات الحج والعمرة، وعلى ما يستطيعه من السنن والأعمال الصالحة رجاء مضاعفة الأعمال.

(الشيخ ابن جبرين -رحمه الله)

الإحرام بحجة واحدة

س٢: هل يصح الإحرام بحجتين أو عمرتين؟ وما هي التلبية وشروطها؟ وما حكمها؟ وما وقتها؟

لا يصح أن يحرم في عام واحد بحجّتين، ولا يجوز إلا حجَّة واحدة كل عام، وكذلك لا يجوز أن يحرم بعمرتين في وقت واحد، ولا يجعل الحجّة الواحدة عن شخصين ولا يحرم بعمرة واحدة عن اثنين، فلم يرد فيه من الأدلة شيء من ذلك. وأما التلبية فهي إجابة لنداء الله تعالى في قوله: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ» (الحج: ٢٧).

ولفظها: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

وحكم التلبية: سنة مؤكدة، وجعلها بعضهم ركنًا؛ حيث إنها شعارٌ ظاهرٌ للحاج والمعتمر.

ووقتها: بعد النية عقب إحرامه وهو في مصلاه، ويأتي بها إذا ركب وإذا نزل وكلما علا مرتفعًا، أو هبط واديًا، أو سمع ملبيًا، أو تلاقت الرِّفاق، أو أقبل ليل أو نهار.

(الشيخ ابن جبرين -رحمه الله)

الاشتراط من السنة

س٣: إذا خاف المحرم ألا يتمكن من أداء نسكه بسبب مرض أو خوف، فماذا يفعل؟

إذا أحرم يقول عند إحرامه: «فإن حبسني حابس فمحلي حيث حبستني». فإذا كان يخاف شيئًا من الموانع كالمرض، فالسُّنَّة الاشتراط؛ لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه أمر ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب بذلك لما اشتكت إليه أنها مريضة (متفق عليه).

(الشيخ ابن باز -رحمه الله)



استعمال حبوب منع العادة في الحج

س٤: ما حكم استعمال المرأة لحبوب منع العادة الشهرية في أيام الحج؟

لا حرج في ذلك؛ لأنّ فيها فائدة ومصلحة، حتى تطوف مع الناس وحتى لا تعطل رفقتها.

(الشيخ ابن باز -رحمه الله)

حكم وضع الطيب على الرداء

س٥: ما حكم وضع الطيب على الإحرام قبل عقد النية والتلبية؟

لا ينبغي وضع الطِّيب على الـرِّداء والإزار، إنَّما السُّنَّة تطييب البدن، كرأسه ولحيته وإبطيه ونحو ذلك. أما الملابس فلا يطيبها عند الإحرام.

(الشيخ ابن باز -رحمه الله)

ثواب الحج للذي نواه

س٧: ما حكم من حجَّ عن والدته، وعند الميقات لبَّى بالحج ولم يلبِ عن والدته؟

ما دام نوى الحج عن والدته ولكن نسي، فإن الحجَّ يكون لوالدته، والنية أقوى لقوله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات»(صحيح البخاري؛ ١).

فإذا كان القصد من مجيئه هو الحجَّ عن أمِّه أو عن أبيه ثم نسي عند الإحرام، فإن الحج يكون للذي نواه وقصده من أب أو أم أو غيرهما.

(الشيخ ابن باز -رحمه الله)

لا يشترط للإحرام ركعتان

س٨: هل يشترط للإحرام ركعتان أم لا؟

لا يـشـتـرط ذلـك، وإنمــا اخـتـلـف الـعـلـمـاء في استحبابها، فذهب الجمهور إلى استحباب ركعتين، يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يلبي. واحتجوا على هذا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أحرم بعد الصلاة، أي أنَّه صلى الظهر ثم أحرم في حجة الوداع، وقال صلى الله عليه وسلم: «أتـانـي آتٍ من ربـي -وهو بالعقيق- أن صل في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة في حجة»(رواه البخاري (٢٣٣٧)). وهذا يدل على شرعية صلاة الركعتين، وهذا قول جمهور أهل العلم.

وقـال آخـرون: ليس في هذا نص، فإن قوله: «أتاني الليلة آت من عند ربي عز وجل» قـال: وهو بالعقيق «وقـال: صلِّ في هذا الـوادي المـبـارك»(رواه أبو داود (١٨٠٠)، وصححه الألباني)، يـحـتـمـل: أن الـمــراد صـلاة الفريضة في الصلوات الخمس، وليس بنص في ركعتي الإحرام. وكونه أحرم بعد الفريضة لا يدل على شرعية ركعتين خاصة بالإحرام، وإنما يدل على أنه إذا أحرم بالعمرة أو بالحج بعد صلاة يكون أفضل إذا تيسر ذلك.

(الشيخ ابن باز -رحمه الله)

يجوز تغيير ملابس الإحرام وغسله

س٩: هل يجوز تغيير لباس الإحرام لغسله؟

لا بأس أن يغسل ملابس الإحرام، ولا بأس أن يغيرها ويستعمل غيرها بملابس جديدة أو مغسولة.

(الشيخ ابن باز -رحمه الله)

إن جاءها الحيض بعد الطواف والسعي سقط الوداع

س١٠: إذا حاضت المرأة أو نفست بعد أحرامها، هل يصحّ لها أن تطوف بالبيت أو ماذا تفعل؟ وهل عليها وداع؟

إذا نفست أو حاضت حين قدومها للعمرة وقفت عن ذلك حتى تطهر، فإذا طهرت تطوف وتسعى وتقصر وتمّت عمرتها. فإذا كان هذا بعد العمرة أو بعد ما أحرمت بالحج في اليوم الثامن فإنّها تعمل أعمال الحج من الوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمرات وغير ذلك من التلبية والذكر، فإذا طهرت طافت وسعت لحجّها، فإن جاءها الحيض بعد الطواف والسعي وقَبل الـوداع سقط عنها الـوداع؛ لأنَّ الحائض والنفساء ليس عليها وداع.

(الشيخ ابن باز -رحمه الله)

يجوز للحائض الجلوس في المسعى

س١١: هل يجوز للمرأة الحائض أن تجلس في المسعى؟

نعم يجوز؛ لأن المسعى لا يعتبر من المسجد الحرام، ولذلك لو أن المرأة حاضت بعد الطواف وقبل السعي فإنها تسعى؛ لأن السعي ليس طوافًا ولا تشترط له الطهارة.

(الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله)

التوكيل في رمي الجمرات

س١٢: متى يجوز التوكيل في رمي الجمرات؟ وهل هناك أيام لا يجوز التوكيل فيها؟



يـجـوز الـتـوكـيـل في جميع الجمرات للمريض العاجز عن الرمي، والحامل التي تخاف على نفسها، والمرضع التي ليس عند أطفالها من يحفظهم والشيخ الكبير والعجوز الكبير ونحوهم ممن يعجز عن الرمي، وهكذا ولي الصبي والصبية يرمي

عنهما. والوكيل يرمي عن نفسه وعن موكله في موقف واحد عند كل جمرة، يبدأ بنفسه ولا يجوز لأحد أن يستنيب ويسافر قبل إتمام الرمي، بل ينتظر حتى ينتهي وكيله من رمي الجمار ثم يودع البيت.

(الشيخ ابن باز -رحمه الله)

يصلي مع الناس ثم يكمل الطواف والسعي

س١٣: ما الحكم إذا أقيمت الصلاة والحاج أو المعتمر لم ينته من إكمال الطواف أو السعي؟

يصلي مع الناس، ثم يكمل طوافه وسعيه من حيث انتهى.

(الشيخ ابن باز -رحمه الله)

س١٤: معتمر لم يدر فسعى قبل أن يطوف، هل عليه بعد إعادة الطواف أن يسعى ثانية؟

- ليس عليه إعادة السعي؛ لما روى أبو داود في سننه بإسناد صحيح إلى أسامة بن شريك قال: «خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم حاجًا، فكان الناس يأتونه، فمن قائل: يا رسول الله، سعيت قبل أن أطوف أو قدمت شيئًا أو أخرت شيئًا، فكان يقول: لا حرج»(رواه أبو داود (٢٠١٥)، وصححه الألباني).

(اللجنة الدائمة)

حكم من نسي الحلق أو التقصير

س١٥: ما حكم من نسي الحلق أو التقصير في العمرة فلبس المخيط، ثم ذكر أنه لم يقصر أو يحلق؟

من نسي الحلق أو التقصير في العمرة فطاف وسعى ثم لبس قبل أن يحلق أو يقصر، فإنه ينزع ثيابه إذا ذكر ويحلق أو يقصر ثم يعيد لبسهما، فإن قصر أو حلق وثيابه عليه جهلاً منه أو نسيانًا فلا شيء عليه وأجزأه ذلك ولا حاجة إلى الإعادة للتقصير أو الحلق، ولكن متى تنبه فإن الواجب عليه أن يخلع حتى يحلق أو يقصر وهو محرمٌ.

(اللجنة الدائمة)

الحج عرفة

س١٦: إذا وقف الحاج خارج حدود عرفة -قريبًا منها- حتى غربت الشمس ثم انصرف، فما حكم حجه؟

إذا لم يقف الحاج في عرفة في وقت الوقوف فلا حجَ له؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الحج عرفة، فمن أدرك ليلة عرفة قبل طلوع الفجر من ليلة جمع فقد تم حجه»(رواه النسائي (٣٠٤٤)، والترمذي (٨٨٩)، وابن ماجه (٢٤٥٩)، وصححه الألباني).

وزمن الوقوف، ما بعد الزوال من يوم عرفة إلى طلوع الفجر من ليلة النحر، هذا هو المجمع عليه بين أهل العلم. ولا يجوز الانصراف لمن وقف نهارًا قبل الغروب، فإن فعل ذلك فعليه دم؛ لكونه ترك واجبًا وهو الجمع في الوقوف بين الليل والنهار لمن وقف نهارًا.

(الشيخ ابن باز -رحمه الله)

المبيت في المزدلفة واجب

س١٧: ما الحكم في ترك المبيت للحاج في مزدلفة ليلة العيد؟

المبيت بمزدلفة واجب، ويرخص للضَعفة الدَفع في آخر الليل، وفي تركه عمدًا الإثم والفدية عند جمهور أهل العلم، ومع الجهل الفدية فقط، ومع العجز يسقط كسائر الواجبات، ولكن من أدرك صلاة الفجر في أول الوقت وبقي بعد الصلاة يذكر الله ثم دفع، أجزأه ذلك.

(الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله)

المبيت في منى واجب

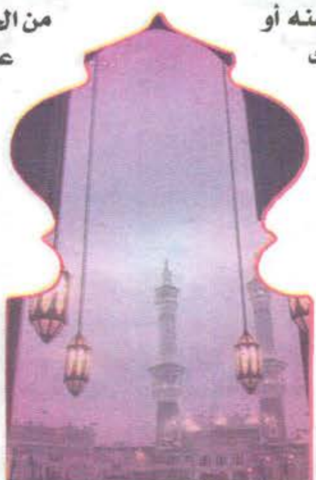
س١٨: ما حكم المبيت خارج منى أيام التشريق، سواء كان ذلك عمدًا أو لتعذر وجود مكان فيها؟ ومتى يبدأ الحاج بالنفير من منى؟

المبيت في منى واجبٌ على الصحيح ليلة إحدى عشرة وليلة اثنتي عشرة، هذا هو الذي رجحه المحققون من أهل العلم على الرجال والنساء من الحجاج، فإن لم يجدوا مكانًا سقط عنهم ولا شيء عليهم، ومن تركه بلا عذر فعليه دم.

ويبدأ الحاجُ بالنَفير من منى إذا رمى الجمرات يوم الثاني عشر بعد الزوال، فله الرخصة أن ينزل من منى، وإن تأخر حتى يرمي الجمرات في اليوم الثالث عشر بعد الزوال فهو أفضل.

(الشيخ ابن باز-رحمه الله)

يجوز الرمي من الحصى الذي



حول الجمار

س١٩: هل يجوز للحاج أن يرمي من الحصى الذي حول الجمار؟

يجوز له ذلك؛ لأنّ الأصل أنه لم يحصل به الرمي، أما الذي في الحوض فلا يرمي بشيء منه.

(الشيخ ابن باز -حفظه الله)

س٢٠: ما حكم من حصل عنده شك بأن بعض الحصى لم يسقط في الحوض؟

من شكّ فعليه التّكميل، يأخذ من الحصى الّذي عنده في منى من الأرض ويكمل بها.

(الشيخ ابن باز -رحمه الله)

يجوز الرمي بعد الغروب

س٢١: هل يجوز رمي الجمرات الثلاث في أيام التّشريق ليلاً لمن ليس لديه عذر؟ وهل يجوز لمن دفع من النساء والضعفة ليلة النحر بعد منتصف الليل من مزدلفة أن يرمي جمرة العقبة أم لا؟

يجوز الرمي بعد الغروب على الصحيح، لكنّ السُّنّة أن يرمي بعد الزّوال إلى قبل الغروب، هذا هو الأفضل إذا تيسر، وإذا لم يتيسر فله الرمي بعد الغروب على الصحيح.

ومن دفع مع الضعفة والنساء من المحارم والسائقين وغيرهم فحكمُه حكمهم، يجزئه أن يرمي في آخر الليل مع النساء.

(الشيخ ابن باز -رحمه الله)

متى يجب إعادة الطواف؟

س٢٢: رجل طاف شوطين، ولكثرة الزحام خرج من الطّواف وارتاح لمدة ساعة أو ساعتين، ثم رجع للطواف ثانية. فهل يبدأ من جديد أم يكمل طوافه من حين انتهائه؟

إذا كان الفصل طويلاً فإن الواجب عليه إعادة الطّواف من جديد، وإن كان قليلاً فلا بأس بالإكمال؛ وذلك لأنه يشترط في الطواف وفي السّعي الموالاة، وهي تتابع الأشواط، فإذا فصل بينها بفاصل طويل بطل الأول -أي أول الأشواط- ويجب عليه أن يستأنف الطّواف أو السّعي من جديد.

أما إذا كان الفصل قصيرًا جلس لمدة دقيقتين أو ثلاث ثم قام وأكمل، فلا بأس، أما الساعة والساعتان فهما من الفصل الطويل الذي يلزمه إعادة الطواف.

(الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله)

هل يجوز أن يخيط الإحرام أو يبدله؟

س٢٣: هل يجوز أن يخيط الإحرام إذا تمزق أو يبدله؟

له أن يخيطه وله أن يبدله بغيره، والأمر في ذلك واسع والحمد لله. والمخيط المنهيُّ عنه هو الّذي يحيط بالبدن كله كالقميص والفنيلة وأشباه ذلك. أما المخيط الّذي يكون في الإزار أو في الرداء لكونه مكونًا من قطعتين أو أكثر خيط بعضها في بعض فلا حرج، وهكذا لو حصل به شقّ أو خرق فخاطه أو رقعه، فلا بأس بذلك.

(الشيخ ابن باز -رحمه الله)

س٢٤: ما الذي ينبغي لمن وفقه الله -تعالى- لإتمام نسكه من الحج والعمرة؟ وما الذي ينبغي له بعد ذلك؟

الذي ينبغي له ولغيره ممن منّ الله عليه بعبادة أن يشكر الله -سبحانه وتعالى- على توفيقه لهذه العبادة، وأن يسأل الله -تعالى- قبولها، وأن يعلم أن توفيق الله إيّاه لهذه العبادة نعمة يستحق -سبحانه وتعالى- الشكر عليها، فإذا شكر الله وسأل الله القبول، فإنّه حريّ بأن يقبل؛ لأن الإنسان إذا وفق للدّعاء فهو حريٌّ بالإجابة، وإذا وفق للعبادة فهو حريٌّ بالقبول. وليحرص غاية الحرص أن يكون بعيدًا عن الأعمال السيئة بعد أن منّ الله عليه بمحوها، فإن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة"(رواه البخاري (١٧٧٣)).

ويقول صلى الله عليه وسلم: "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهنّ إذا اجتنب الكبائر"(رواه مسلم (٢٣٣)).



ويقول صلى الله عليه وسلم: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما"(رواه البخاري (١٧٧٣)). وهذه وظيفة كلّ إنسانٍ يمنُّ الله -تعالى- عليه بفعل عبادة أن يشكر الله على ذلك، وأن يسأله القبول.

(الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله)



باب الفقه

أحكام الصلاة

التسليم لِلْخُرُوجِ مِنَ الصَّلَاةِ (حكمه - صفته)

إعداد/ د. حمدي طه

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

تناولنا في العدد السابق الدعاء بعد التشهد، ونتناول في هذا العدد التسليم في الصلاة، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إذا فرغ المصلي من التشهد وجوباً، ومن الصلاة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتعوُّذ والدعاء ندباً واستحباباً خرج من صلاته بالتسليم عن يمينه وجوباً، وعن يساره ندباً واستحباباً وإليك بيان ذلك.

أولاً: حكم التسليم لِلْخُرُوجِ مِنَ الصَّلَاةِ:

التَّسْلِيمَةُ الأُولَى لِلْخُرُوجِ مِنَ الصَّلَاةِ حَالَ الْقُعُودِ فَرْضٌ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ. وَزَادَ الْحَنَابِلَةُ فَرْضِيَّةَ الثَّانِيَةِ أَيْضًا إِلَّا فِي صَلَاةِ جِنَازَةٍ وَنَافِلَةٍ وسجدةِ تلاوةٍ وشكرٍ فيخرج منها بتسليمة واحدة، وتنقضي الصلاة عند المالكية والشافعية بالسلام الأول، وعند الحنابلة بالسلام الثاني.

وَقَالَ الْحَنَفِيَّةُ: الْخُرُوجُ مِنَ الصَّلَاةِ بِلَفْظِ السَّلَامِ لَيْسَ فَرْضًا، بَلْ هُوَ وَاجِبٌ فَلَوْ قعد قدر التشهد، ثم خرج من الصلاة بسلام أو كلام أو فعل أو حدث، أجزأه ذلك، فالفرض: إنما هو الخروج من الصلاة بصنع المصلي. (انظر الموسوعة الفقهية الكويتية ١١/٣١٠، الفقهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُه د. وَهْبَة الزُّحَيْلِيّ ٢/٤٧).

قال المرغيناني صاحب الهداية: إِصَابَةُ لَفْظِ السَّلَامِ وَاجِبَةٌ عِنْدَنَا وَلَيْسَتْ بِفَرْضٍ خِلَافًا لِلشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ الله. (الهداية شرح بداية المبتدي ١/٥٣).

وقد نسب بعض أهل العلم إلى أبي حنيفة القول بسنية السلام، وقد خطأ أئمة الحنفية هذا، قال زين الدين ابن نجيم الحنفي: «السَّلَامَ من وَاجِبَاتِهَا عِنْدَنَا وَمِنْ أَرْكَانِهَا عِنْدَ الْأَئِمَّةِ الثَّلَاثَةِ، وَمَنْ أَطْلَقَ مِن مَشَايِخِنَا عليه اسْمَ السُّنَّةِ فَضَعِيفٌ، وَالْأَصَحُّ وُجُوبُهُ كما في المُحِيطِ وَغَيْرِهِ» (البحر الرائق شرح كنز الدقائق ١/٣٥٢).

وحكي الترمذي عن بعض أهل العلم القول بصحة الصلاة دون التسليم، قال: وقد ذهب

بعض أهل العلم إلى هذا، وقال إسحاق بن إبراهيم: إذا تشهد ولم يسلم أجزأه. (انظر الجامع الصحيح للترمذي ٢٦١/٢ بتصرف). وقد مال إلى هذا القول بعض المتأخرين كالشوكاني. (انظر: نيل الأوطار للشوكاني ٣٤٣/٢).

واستدل الجمهور بحديث علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «مفتاحُ الصلاة الطهور، وتحريمُها التكبير، وتحليلها التسليم» رواه أحمد والترمذي وأبو داود.

فَقَوْلُهُ: تَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ أَيْ لاَ يَخْرُجُ مِنَ الصَّلاَةِ إِلاَّ بِهِ، أي: أن كل ما حرم فعله أو قوله في أثناء الصلاة يعود حلالاً بمجرد التسليم. وهذا المعنى نفسه يُشكل قرينة على وجوب التسليم؛ لأن الإضافة في قوله (وتحليلها) تقتضي الحصر، فكأنه قال جميع تحليلها التسليم، أي انحصر تحليلها في التسليم لا تحليل لها غيره (انظر الجامع لأحكام الصلاة ٢٩٧/٢).

وفي رد الاستدلال بالحديث قال علاء الدين الكاساني: وأما الحديث فَلَيْسَ فيه نَفْيُ التَّحْلِيلِ بِغَيْرِ التَّسْلِيمِ إلاَّ أَنَّهُ خَصَّ التَّسْلِيمَ لِكَوْنِهِ وَاجِبًا. (بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ١٩٤/١).

واستدلوا بحديث عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنْتُ أَرَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَلِّمُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ حَتَّى أَرَى بَيَاضَ خَدِّهِ) رواه أحمد ومسلم.

وَلأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُدِيمُ ذَلِكَ، وَلاَ يُخل بِهِ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي) أخرجه البخاري من حديث مالك بن الحويرث.

واحتج الحنفية بحديث المسيء في صلاته ولم يرد فيه أمر النبي صلى الله عليه وسلم للمسيء بالتسليم في آخر الصلاة، ولم يعلمه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، والقاعدة لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة.

والجواب عن الاستدلال بحديث المسيء صلاته أنه ترك بيان السلام لعلمه به كما ترك بيان النية والجلوس للتشهد وهما واجبان بالاتفاق (المجموع ٤٨٠/٣).

والأرجح قول الجمهور؛ لقوة أدلتهم.

أقل ما يجزئ في التسليم:

أَقَلُّ مَا يُجْزِئُ فِي التَّسْلِيمِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ قَوْلُهُ: " السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ " مَرَّةً عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ، وَمَرَّتَيْنِ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ كَمَا سَبَقَ، وَأَكْمَلُهُ " السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ " يَمِينًا وَشِمَالاً مُلْتَفِتًا فِي الأُولَى حَتَّى يُرَى خَدُّهُ الأَيْمَنُ، وَفِي الثَّانِيَةِ حَتَّى يُرَى خَدُّهُ الأَيْسَرُ، وَأقل مَا يُجْزِئُ فِي لَفْظِ السَّلاَمِ مَرَّتَيْنِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ " السَّلاَمُ " دُونَ قَوْلِهِ " عَلَيْكُمْ ". وَأَكْمَلُهُ وَهُوَ السُّنَّةُ أَنْ يَقُول: " السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ " مَرَّتَيْنِ. (الموسوعة الفقهية الكويتية ٣١٠/١١).

ودليل جواز الاقتصار على تسليمة واحدة عند الجمهور حديث عَلِيٍّ - رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: « مِفْتَاحُ الصَّلاَةِ الطُّهُورُ وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ ». رواه الترمذي وقال: هذا الحديث أصح شيء في هذا الباب. قالوا: هذا لفظ مطلق يصدق بواحدة التسليمة الواحدة يقع عليها اسم تسليم؛ لأن التسليم مصدرٌ، والمصدر يصدق على القليل والكثير، ولا يقتضي عدداً، فيدخل فيه التسليمة الواحدة. (انظر: فتح الباري- لابن رجب ٢١٤/٥ بتصرف).

وأجاب القائلون بوجوب التسليمتين: لا يجزئ تسليمة واحدة ؛ لأن «أل» في «التسليم» للعهد الذهني فالتسليم يرجع إلى ما عهد منه فعله، وهو التسليمتان. (انظر: الشرح الممتع ٢١٣/٣ بتصرف).

واستدلوا كذلك بحديث عائشة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسلم تسليمة واحدة تلقاء وجهه. (سنن ابن ماجه برقم ٩١٩، وقال الشيخ الألباني: صحيح).

- وعن ابن عمر قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفصل بين الشفع والوتر بتسليم يسمعناه) - (صحيح ابن حبان برقم ٢٤٣٤) قال شعيب الأرناءوط: صحيح.

وقال الشيخ الألباني أيضاً: وقد ثبتت التسليمة الواحدة عن جماعة من الصحابة منهم أنس وابن عمر (إرواء الغليل - الألباني).

وجه الاستدلال من هذه الأحاديث كونه - صلى الله عليه وسلم - قد خرج من الصلاة متحللاً بتسليمة واحدة دون التسليمة الثانية عن اليسار، فدل ذلك دلالة واضحة على عدم وجوب التسليمة الثانية عن اليسار، إذ لو كان تحليل الصلاة لا يتم إلا بتسليمتين اثنتين لما اكتفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالخروج من الصلاة بتسليمة واحدة فحسب. (انظر: الجامع لأحكام الصلاة ٢٩٩/٢).

واستدلوا كذلك بالإجماع أيضاً قال ابن المنذر: أجمع العلماء على أن صلاة من اقتصر على تسليمة واحدة جائزة. وقال النووي: أجمع العلماء الذين يعتد بهم على أنه لا يجب إلا تسليمة واحدة. (انظر: المغني - ابن قدامة ٦٢٠/١، شرح النووي على صحيح مسلم ٨٣/٥).

قلت: ودعوى الإجماع لا تصح.

ودليل إيجاب التسليمتين ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم بأحاديث متعددة منها حديث ابن مسعود: ((أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسلم عن يمينه وعن يساره: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله، حتى يرى بياض خده)) رواه الخمسة.

وحديث عامر بن سعد عن أبيه، قال: ((كنت أرى النبي صلى الله عليه وسلم يسلم عن يمينه وعن يساره، حتى يُرى بياض خده)) رواه أحمد ومسلم.

وقد ثبت محافظته صلى الله عليه وسلم على التسليمتين حضراً وسفراً، في حضور البوادي، والأعراب، والعالم، والجاهل فهذه الأحاديث مع قوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي» يدل على أنه لا بُدَّ منهما. (الشرح الممتع ٢١٣/٣).

ولذلك سلك بعضهم مسلك الترجيح قال الشوكاني: "والحق ما ذهب إليه الأولون- أي القائلون بوجوب التسليمتين - لكثرة الأحاديث الواردة بالتسليمتين وصحة بعضها وحسن بعضها واشتمالها على الزيادة وكونها مثبتة بخلاف الأحاديث الواردة بالتسليمة الواحدة فإنها مع قلتها ضعيفة لا تنتهض للاحتجاج، ولو سلم انتهاضها لم تصلح لمعارضة أحاديث التسليمتين لما عرفت من اشتمالها على الزيادة". (انظر: نيل الأوطار ٣٣٦/٢).

ويجاب عن ذلك بأنه قد ثبت أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم التسليمة الواحدة في الصلاة ولا يصار إلى الترجيح إلا عند عدم إمكان الجمع بين الأدلة والجمع هنا ممكن.

واحتجوا بحديث جابر بن سمرة عند مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنما يكفي أحدكم أن يضع يده على فخذه، ثم يسلم على أخيه من على يمينه وشماله». وقالوا: إن ما دون الكفاية لا يكون مجزيا.

ورد بأن قوله في حديث جابر: (إنما يكفي أحدكم) فإنه يعني في إصابة السنة بدليل أنه قال أن يضع يده على فخذه ثم يسلم على أخيه عن يمينه وشماله وكل هذا غير واجب. (المغني - ابن قدامة ٦٢٠/١).

وبعد عرض أدلة الفريقين يترجح قول جمهور الفقهاء القائلين بوجوب تسليمة واحدة، وأن التسليمة الثانية سنة، وما دامت التسليمة الثانية غير واجبة، وما دام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحابته لا يكادون يتركونها فلم يبق لنا إلا أن نقول باستحبابها، وقصر الوجوب على التسليمة الأولى.

قال الإمام ابن قدامة بعد ذكر هذه المسألة وبيان الراجح فيها: "وهذا الخلاف الذي ذكرناه في الصلاة المفروضة، أما صلاة الجنازة والنافلة وسجود التلاوة فلا خلاف في أنه يخرج منها بتسليمة واحدة" (المغني ٦٢٠/١).

ألفاظ التسليم من الصلاة:

وردت عدة صيغ للتسليم أكثرها روايةً وأصحُّها إسناداً هي (السلام عليكم ورحمة الله)؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسلم كذلك كما في رواية ابن مسعود وجابر بن سمرة وغيرهما ولفظ حديث ابن مسعود: ((أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسلم عن يمينه وعن يساره: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله، حتى يرى بياض خده)) رواه الخمسة.

وعن سعد قال: كنت أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلم عن يمينه وشماله حتى أرى بياض خده (السلام عليكم ورحمة الله السلام عليكم ورحمة الله) رواه أحمد ومسلم.

وكان أحيانا يزيد في التسليمة الأولى (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، فعن وائل رضي الله عنه قال: «صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم فكان يسلم عن يمينه: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وعن شماله: السلام عليكم ورحمة الله» (رواه أبو داود برقم ٩٩٧ وصححه الألباني).

فهذا في التسليمة الأولى، ومرة أخرى في التسليمة الثانية، روى عبد الله رضي الله عنه «أن النبي- صلى الله عليه وسلم- كان يسلم عن يمينه وعن يساره حتى يُرى بياض خده: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله

وبركاته» (رواه ابن حبَّان وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم).

فهذا في التسليمة الثانية، كما وردت صيغة (السلام عليكم) فقط دون (ورحمة الله) ودون (وبركاته) كما في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: (كنا نصلي خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ما بال هؤلاء يسلمون بأيديهم كأنها أذناب خيل شمس؛ إنما يكفي أحدكم أن يضع يده على فخذه، ثم يقول السلام عليكم السلام عليكم) (رواه النسائي برقم ١١٨٥، وصححه الألباني).

وكان صلى الله عليه وسلم إذا قال عن يمينه: (السلام عليكم ورحمة الله) اقتصر- أحيانًا صلى الله عليه وسلم على قوله عن يساره: (السلام عليكم)، فعن واسع بن حبان قال: قلت لابن عمر: أخبرني عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف كانت؟ قال فذكر التكبير... قال: وذكر السلام عليكم ورحمة الله عن يمينه السلام عليكم عن يساره. (رواه النسائي برقم ١٣٢١، وقال الألباني: حسن صحيح).

وأحيانا كان يسلم تسليمة واحدة: (السلام عليكم) تلقاء وجهه يميل إلى الشق الأيمن شيئاً أو قليلاً كما في حديث عائشة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسلم في الصلاة تسليمة واحدة تلقاء وجهه يميل إلى الشق الأيمن شيئا) (رواه الترمذي برقم ٢٩٦).

وعلى هذا نجد أن هديه صلى الله عليه وسلم في الخروج من الصلاة على وجوه:

١- الاقتصار على تسليمة واحدة.

٢- أن يقول عن يمينه: السلام عليكم ورحمة الله، وعن يساره السلام عليكم.

٣- مثل الذي قبله إلا أنه يزيد في الثانية أيضًا ورحمة الله.

٤- مثل الذي قبله إلا أنه يزيد في التسليمة الأولى: وبركاته.

٥- مثل الذي قبله إلا أنه يزيد في التسليمة الثانية: وبركاته. كل ذلك ثبت بالأحاديث (انظر السلسلة الصحيحة، للألباني ٦٢٨/١ بتصرف).

الالتفات للسلام:

يسن للمصلي أن يلتفت عن يمينه في التسليمة الأولى وعن يساره في الثانية بحيث تظهر صفحة خده لمن يجلس خلفه، ويكون ذلك بأن يبلغ نظرُه أقصى اليمين وأقصى اليسار دون أن يتجاوز ذلك إلى النظر إلى الخلف، كما يفعل فئام من الناس، فهذا لا لزوم له ولا أصل له كما جاءت السنة بذلك قال ابن مسعود: (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلم حتى يُرى بياض خده عن يمينه، وعن يساره).

قال عبد الله بن أحمد: قال أبي: ثبت عندنا من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يسلم عن يمينه وعن يساره حتى يُرى بياض خديه.

ولا تُشرع حركة الأيدي عند التسليم، لا بالتلويح بها مع كل تسليمة، ولا بالإشارة بها، ولا بالرمي بها، فعن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: «كنا إذا صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله، وأشار بيده إلى الجانبين، فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: علام تومئُون بأيديكم كأنها أذنابُ خيل شُمُس؟ إنما يكفي أحدَكم أن يضع يده على فَخذه ثم يسلِّم على أخيه من على يمينه وشماله» (رواه مسلم).

إذن فإن الإشارة والإيماء والرمي والرفع للأيدي كل ذلك غير مشروع ومنهيٌّ عنه في التسليم وفي غيره ما دام المصلي قاعدا. ويكفي لجمع كل المنهيات قوله عليه الصلاة والسلام: «اسكُنُوا في الصلاة»؛ فالسكون هو المطلوب والمشروع وخلاف ذلك محظور منهي عنه. ولا يستثنى من ذلك سوى تحريك السَّبَّابة في أثناء جلسة التشهد. (انظر الجامع لأحكام الصلاة ٣٠٣/٢).

حذف السلام:

السنة في التسليم السرعة فيه، وتخفيفه دون مدٍّ أو إطالة؛ خلافاً لما يفعله كثير من الأئمة والمصلين. قال العلماء: يستحب أن يدرج لفظ السلام ولا يمد مدًا لا أعلم في ذلك خلافا بين العلماء، واحتج له أبو داود والترمذي والبيهقي وغيرهم من أئمة الحديث والفقهاء بحديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: "قال حذف السلام سنة" رواه الترمذي هكذا موقوفاً على أبي هريرة. ورواه أحمد وأبو داود مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن الموقوف أصح، ولكن قول الصحابي أنَّ فعْل كذا سُنَّة يأخذ حكم الرفع قال ابن المبارك معناه لا يمد مدًا. (انظر المجموع ٤٨٠/٣ بتصرف).

والحمد لله رب العالمين.

الهمة العالية

نظرات في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم

إعداد / جمال عبد الرحمن

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعدُ:

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعود أصحابه على الهمة العالية والنشاط في عبادتهم وأحوالهم علاجًا للفتور والاسترخاء.

عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: كُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَأَقُومُ لَهُ فِي حَوَائِجِهِ، نَهَارِي أَجْمَعَ، حَتَّى يُصَلِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ، فَأَجْلِسَ بِبَابِهِ، إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ، أَقُولُ لَعَلَّهَا أَنْ تَحْدُثَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَاجَةٌ، فَمَا أَزَالُ أَسْمَعُهُ يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: سُبْحَانَ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، حَتَّى أَمَلَّ، فَأَرْجِعَ، أَوْ تَغْلِبَنِي عَيْنِي، فَأَرْقُدُ، قَالَ: فَقَالَ لِي يَوْمًا، لِمَا يَرَى مِنْ خِفَّتِي لَهُ وَخِدْمَتِي إِيَّاهُ: سَلْنِي يَا رَبِيعَةُ، أُعْطِكَ. قَالَ: فَقُلْتُ: أَنْظُرُ فِي أَمْرِي، يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ أُعْلِمُكَ ذَلِكَ، قَالَ: فَفَكَّرْتُ فِي نَفْسِي، فَعَرَفْتُ أَنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ وَزَائِلَةٌ، وَأَنَّ لِي فِيهَا رِزْقًا سَيَكْفِينِي وَيَأْتِينِي، قَالَ: فَقُلْتُ: أَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِآخِرَتِي، فَإِنَّهُ مِنَ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، بِالْمَنْزِلِ الَّذِي هُوَ بِهِ، قَالَ: فَجِئْتُ، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ يَا رَبِيعَةُ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَسْأَلُكَ أَنْ تَشْفَعَ لِي إِلَى رَبِّكَ، فَيُعْتِقَنِي مِنَ النَّارِ، فَقَالَ: مَنْ أَمَرَكَ بِهَذَا يَا رَبِيعَةُ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ، الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا أَمَرَنِي بِهِ أَحَدٌ، وَلَكِنَّكَ لَمَّا قُلْتَ: سَلْنِي أُعْطِكَ، وَكُنْتَ مِنَ اللَّهِ بِالْمَنْزِلِ الَّذِي أَنْتَ بِهِ، نَظَرْتُ فِي أَمْرِي، وَعَرَفْتُ أَنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ وَزَائِلَةٌ، وَأَنَّ لِي فِيهَا رِزْقًا سَيَأْتِينِي، فَقُلْتُ: أَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِآخِرَتِي، قَالَ: فَصَمَتَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ لِي: إِنِّي فَاعِلٌ، فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ. (رواه أحمد في مسنده).

الهمة: قالوا: أولها الهم: كقوله صلى الله عليه وسلم: «من همَّ بحسنة فلم يعملها». وبهذا تكون بدايتها: «توجه القلب وقصده لحصول الكمال، فإذا عملت سميت الهمة، وعليه فالهمة هي الباعث على العمل والفعل، وتوصف بالعلو والسفول.

والهمة في الشرع: ألا تكون دون الله، ولا تتعوض عنه بشيء سواه، ولا ترضى به وبرسوله بدلاً.

أحوال خسيس الهمة:

قال بعض السلف: القلوب جوالة، فإما أن تجول حول العرش، وإما أن تجول حول الحش (المكان القذر)، وقال بعضهم: نزول همة الكساح، دلاه في جب العذرة.

خلق الله للحروب رجالاً ورجالاً لقصعة وثريد

قال الله تعالى: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا» (الأعراف:١٧٩)، وقال تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ» (محمد:١٢)، وسفلة الهمم هؤلاء الذين أخبر عنهم الصادق المصدوق بقوله: «وأهل النار خمسة، الضعيف الذي لا زَبْرَ له (أي لا عقل له يمنعه مما لا ينبغي) الذين

هم فيكم تبع لا يبغون أهلاً ولا مالاً». (رواه مسلم).

فهو قانع بأنه ذيل مارق من المسئولية.

وساقطو الهمة هم الغثاء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوَهْن، قالوا: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت». (رواه الترمذي وغيره).

كلما همَّ أحدهم أن يسمو إلى المعالي ختم الشيطان على قلبه: «عليك ليل طويل فارقد». وكلما سعى لعمل نازعته جيوش عسى وسوف ولعل.

وكلما نظر نظرة إصلاح نازعته نفسه: «أنت أكبر أم الواقع؟» هل ستصلح الكون؟

وقد ضرب الله مثلاً لخسيس الهمة، فقال: «مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا» (الجمعة:٥).

وقال فيمن حُرم العلم والبصيرة والهمة والعزيمة: «إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ» (الأنفال:٢٢)، وقال تعالى: «أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ» (الفرقان:٤٤).

وقال: «وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ» (المنافقون:٤).

ثانيا: الشرع يدعو إلى علو الهمة:

قال الله تعالى: «سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ» (الحديد:٢١)، وقال: «وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» (آل عمران:١٣٣)، «ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ» (الزمر:١٨)، وقال: «فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» (الذاريات:٥٠)، «لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ» (الصافات:٦١)، «يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ» (المؤمنون:٦١)، وقال: «لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ» (النساء:٩٥)، «خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ» (الأعراف:١٧١)، «وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» (الزمر:٥٥).

وفي السُّنَّة الشريفة: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن يغرسها قبل أن تقوم الساعة فليغرسها»، «إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها». قال المناوي: هي الأخلاق الشرعية والخصال الدينية لا الأمور الدنيوية، فإن العلو فيها نزول. (فيض القدير).

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كَانَتْ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ الله غِنَاهُ فِي قَلْبِه وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ الله فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْه وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْته مِنْ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَه».

- وقال صلى الله عليه وسلم: «لَوْ كَانَ الإيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ».

ومن أمثلة رفع الهمة في الطاعات:

- «احْضُرُوا الذِّكْرَ، وَادْنُوا مِنْ الإِمَامِ فَإِنَّ الرَّجُلَ لا يَزَالُ يَتَبَاعَدُ حَتَّى يُؤَخَّرَ فِي الْجَنَّةِ وَإِنْ دَخَلَهَا». (رواه أحمد، وحسنه الألباني).

- «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلاَّ أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا». (صحيح البخاري).

وفي سؤال الجنة: «إِذَا سَأَلْتُمُ الله فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ». (البخاري).

ولذلك سأله ربيعة: أسألك مرافقتك في الجنة.

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله
ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل
ومَنْ لم يذل النفس في طلب العلى
يسيرا يعش دهرًا طويلاً أخا ذُلّْ

ثالثا: المعين على الهمة العالية:

١ - التجافي عن ترف الدنيا ونعيمها:

قال الله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ » (التوبة:٣٨).

وها هو عمر بن عبد العزيز رحمه الله الذي نشأ في بيت إمارة وخزائن الدنيا بين يديه، عاش عيشة الكفاف، وقد عرفنا كيف عاش نبينا صلى الله عليه وسلم.

٢- أثر الوالدين والمربين في التربية الصالحة:

وينشأ ناشئ الفتيان منا
على ما كان عوده أبوه

فهذا أريب العرب وألمعيها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، كان وراءه أمٌّ عظيمة هي هند بنت عتبة القائلة عنه: ثكلته أمه إن لم يسد إلا قومه، وذلك لما قيل لها عن معاوية وهو وليد بين يديها: إن ابنك هذا إن عاش ساد قومه. وكان معاوية نفسه إذا افتخر أحد عليه وتباهى بالرأي صدع أسماع خصمه بقوله: أنا ابن هند.

وكذلك عبد الله بن الزبير وراءه أم عظيمة هي أسماء بنت أبي بكر لما نُعي ابنها إليها، قالت: وما يمنعني (أي من الصبر) وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل.

٣- التشجيع: وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر: نعم الرجل عبد الله بن عمر لو كان يصلي من الليل، فكان عبدالله بعد ذلك لاينام من الليل الا قليلا» البخاري.

٤- مخالطة أهل الهمم وقراءة سيرتهم واستشارتهم:

قال علي: نعم المؤازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد.

وقال ابن حزم: ومن طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق، ومن طلب المال والجاه واللذات لم يساير إلا أمثال الكلاب الكلبة (أي: المسعورة)، والثعالب الخَلِبَة (الماكرة).

وقالوا: «قل لي من تصاحب أقول لك من أنت».

٥- الدعاء: كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ويقول: «اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى». (رواه النسائي: ١٣٠٥).

وكان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل». (رواه البخاري: ٦٠٠٨).

٦- قصر الأمل وتذكر الآخرة: قال ابن عمر رضي الله عنهما: «أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك. (رواه البخاري).

وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم، قال الله تعالى حاكيًا عن مؤمن آل فرعون: «يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ » (غافر:٣٩). (جامع العلوم والحكم: ٢/٣٧٧).

٧- النظر إلى من هو أعلى في الفضائل والأدنى في الدنيا: ولذلك جاء في الحديث: عن أبي هريرة: انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم. (مسلم: ٩٦٣).

وقال صلى الله عليه وسلم: «أقلوا الدخول على الأغنياء فإنه قَمِنٌ أن لا تزدروا نعم الله عز وجل». (رواه الحاكم وصححه عن عبد الله بن الشخير، ووافقه الذهبي).

٨- التفاؤل وعدم اليأس: قال الله تعالى حاكيًا عن يعقوب عليه السلام: « يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » (يوسف:٨٧).

وقال الله تعالى: «وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ» (القصص:٨٣)، وقال صلى الله عليه وسلم: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء لحضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه».

فالتشاؤم يدعو إلى الكسل واليأس والقنوط والإخلاد إلى الأرض والتثاقل.

٩- تعود الإسراع والمبادرة: فالله تعالى يقول: «وَسَارِعُوا»، ويقول: «سابقوا»، ويقول صلى الله عليه وسلم: «بادروا بالأعمال، هل تنتظرون إلا فقرًا ممسيًا، أو غنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا، أو موتًا مُجهزًا، أو الدجال، فشرُّ غائب ينتظر، أو الساعة؛ فالساعة أدهى وأمر». (أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ح٢٣٠٦ وقال: حديث حسن).

١٠- التحول عن البيئة المثبطة:

في حديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا، أنه «سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُل على رجل فأتاه فقال: إني قتلتُ مائة نفس، فهل لي من توبة؟ فقال: ويحك، ومن يحول بينك وبين التوبة؟ اخرج من القرية الخبيثة التي أنت فيها إلى القرية الصالحة، قرية كذا وكذا فاعبد ربك فيها». (ابن ماجه وصححه الألباني).

١١- استشعار المسئولية: قال صلى الله عليه وسلم: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَالرَّجُل رَاعٍ فِي أَهْلِه وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِه وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه». والله تعالى سائل عن هذه الأمانة، فقال: «فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ» (الأعراف:٦)، وقال: «فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ» (الزلزلة:٧-٨).

١٢- توطين النفس على الاعتدال حال السراء والضراء:

في حديث صهيب عند مسلم (ح٢٩٩٩) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

١٣- الصبر والمصابرة والمرابطة:

قال الشاعر:

الصبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقته
لكن عواقبه أحلى من العسل

وفي الصبر على طلب العلم قال الشافعي:

اصبر على مرِّ الجفا من معلم
فإنَّ رسوبَ العلم في نفراته
ومنْ لم يذق مرَّ التعلم ساعة
تجرَّعَ ذُلَّ الجهل طولَ حياته
ومن فاتهُ التَّعليمُ وقتَ شبابه
فكبِّرْ عليه أربعاً لوفاته
وَذَاتُ الْفَتَى- واللّهِ- بالْعلْم وَالتُّقَى
إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

وقال الحسن: الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده.

وقال علي رضي الله عنه: الصبر مطية لا تكبو.

١٤- الحرص على الإفادة من الأفراد والمواقف:

وكان هذا منهج النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رأى امرأة ملهوفة على ابنها أشد اللهفة، قال لأصحابه: «أرأيتم هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قالوا: لا؛ فقال: الله أرحم بعبده من هذه بولدها، وغير هذا كثير.

١٥- الإقلال من الشهوات المباحة خاصة الأكل:

عن المقدام بن معد يكرب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما ملأ آدمي وعاءً شرًا من بطن، حسب الآدمي لقيمات يقمن صلبه، فإن غلبت الآدمي نفسه فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للفضل». (ابن ماجه: ٣٣٤٩).

وقالوا: من أكل كثيرًا شرب كثيرًا، نام كثيرًا، فاته الكثير.

تحذير الداعية من القصص الواهية

قصة الباب المفتوح من الجنة في حجر إسماعيل عليه السلام

الحلقة (١٩٣)

نواصل في هذا التحذير تقديم البحوث العلمية الحديثية للقارئ الكريم حتى يقف على حقيقة هذه القصة التي اغتر بها القبوريون والمتصوفة، واشتهرت على ألسنة الوعاظ والقصاص، وغرَّهم وجود هذه القصة الواهية في كتب السنة الأصلية، وإلى القارئ الكريم بيان حقيقة هذه القصة.

إعداد/ علي حشيش

أولاً: المتن:

رُوِيَ عن المبارك بن حسان الأنماطي قال: رأيت عمر بن عبد العزيز في الحِجْر فسمعته يقول: شكا إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حَرَّ مكة، فأوحى الله تعالى إليه إني أفتح لك بابًا من الجنة في الحِجْر يجري عليك منه الرَّوْحُ إلى يوم القيامة، وفي ذلك الموضع تُوفِّيَ. قال خالد: فيرون أن ذلك الموضع ما بين الميزاب إلى باب الحِجْر الغربي فيه قبر إسماعيل. اهـ.

ثانيًا: التخريج:

الخبر الذي جاءت به هذه القصة أخرجه أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد المعروف بالأزرقي المتوفى سنة (٢٥٠هـ) في كتابه «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار» (٣١٢/١) باب: «ذكر الحِجر» قال: حدثني جدي عن خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن سلمة المخزومي قال: حدثني المبارك بن حسان الأنماطي قال: رأيت عمر بن عبد العزيز في الحِجر.. القصة.. اهـ.

ثالثًا: التحقيق:

هذه القصة واهية، والخبر الذي جاءت به من حيث وصوله إلينا كما هو مبين من التخريج لم يكن مرفوعًا بل ولم يكن موقوفًا، حيث إن:

أ- الخبر المرفوع: هو ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ب- والخبر الموقوف هو ما أضيف إلى الصحابي.

جـ- والخبر المقطوع هو ما أضيف إلى التابعي أو من دونه من قول أو فعل.

كذا في «اختصار علوم الحديث» للحافظ ابن كثير، النوع (٦)، والنوع (٧)، والنوع (٨).

وبتحقيق الطبقة التي يُنسب إليها عمر بن عبد العزيز رحمه الله، والذي أضيف إليه هذا الخبر الذي جاءت به هذه القصة:

قال الحافظ ابن حجر في «التقريب» (٥٩/٢): « عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي أمير المؤمنين، أمه أم عاصم بنت عاصم ابن عمر بن الخطاب، ولي إمرة المدينة للوليد، وكان مع سليمان كالوزير، وولي الخلافة بعده، فعُدَّ مع الخلفاء الراشدين، من الرابعة مات في رجب سنة إحدى ومائة، وله أربعون سنة، ومدة خلافته سنتان ونصف، روى له الجماعة». اهـ.

قلتُ: والرابعة هي طبقة تلي الطبقة الوسطى من التابعين جُلُّ روايتهم عن كبار التابعين. اهـ. كذا في «مقدمة التقريب» (٦/١).

إذن عمر بن عبد العزيز رحمه الله في طبقة ما

بين الوسطى والصغرى من التابعين.
وبالنظر إلى هذا الخبر من حيث وصوله إلينا، وبالنظر إلى علم الطبقات، يحكم على الخبر الذي جاءت به هذه القصة: بأنه «مقطوع»، وليس من قول النبي صلى الله عليه وسلم ولا من قول الصحابة رضي الله عنهم حتى يأخذ حكم الموقوف لفظًا المرفوع حكمًا.
إنما هو قول منسوب إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز قال: «شكا إسماعيل عليه السلام إلى ربه عزَّ وجل حرَّ مكة...» اهـ.
قلتُ: فعمن أخذ عمر بن عبد العزيز رحمه الله هذا الخبر، وهو كما بينا آنفًا من طبقة بين الوسطى والصغرى من التابعين، وعلى هذا يكون بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم الوسطى والكبرى والصحابة، فكيف وهذا الخبر يرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وبهذا يكون هذا الخبر الذي جاءت به هذه القصة قد فقد شرطي الحديث المسند من: الاتصال والرفع، وحتى لو كان متصلاً مرفوعًا لا يقبل لما به من علل تجعل هذا الخبر من الكذب المختلَق المصنوع المنسوب إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وهذا هو البيان:
العلة الأولى: خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن سلمة المخزومي:
١- قال الإمام الحافظ ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٣٤٢/٣): «خالد بن عبد الرحمن المخزومي، وهو ابن عبد الرحمن بن خالد بن سلمة المخزومي سمعت أبي يقول ذلك، ويقول: هو ذاهب الحديث، تركوا حديثه». اهـ.
٢- قال الإمام الحافظ أبو جعفر العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٤٠٩/٨/٢): حدثني آدم بن موسى، قال: سمعت البخاري، قال: خالد بن عبد الرحمن المخزومي مكي ذاهب الحديث. اهـ. ثم ختم ترجمته فقال: «وله غير حديث منكر عن الثقات». اهـ.
٣- قال الإمام الحافظ أبو الحجاج يوسف المزي في «تهذيب الكمال» (١٦١٣/٣٨٦/٥): «خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن سلمة المخزومي المكي هو ضعيف مجمع على ضعفه، قال البخاري، وأبو حاتم: ذاهب الحديث زاد أبو حاتم: تركوا حديثه». اهـ.
٤- فائدة: ذكر الإمام الحافظ المزي في «تهذيب الكمال» (١٦١١/٣٨٤/٥): «خالد بن عبد الرحمن الخرساني أبو الهيثم، ويقال: أبو محمد المروذي من مَرْو الروذ، سكن ساحل دمشق». اهـ.
قلتُ: ثم فرق بينهما الحافظ المزي فقال في «تهذيب الكمال» (١٦١٣/٣٨٦/٥): «ذكرناهما للتمييز بينهم وقد جعل ابن عدي الخراساني والمخزومي واحدًا، وفرق بينهما العقيلي وغيره وهو الصحيح». اهـ.
٥- قال الحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب» (٩٠/٣): «وفرق بينهما أيضًا ابن أبي حاتم، والمخزومي ذكر ابن يونس أنه مات سنة ٢١٢ بمصر، وقال البخاري في «الأوسط»: «رماه عمرو بن علي بالوضع»، وقال صالح بن محمد: «منكر الحديث»، وقال الحاكم أبو أحمد: «خالد بن عبد الرحمن المخزومي الخراساني سكن مكة حديثه ليس بالقائم». فعقب الحافظ ابن حجر على كلام الحاكم هذا فقال: «وقوله الخرساني خطأ أيضًا». وقال الدارقطني: ضعيف». اهـ.
قلتُ: وقد يحسب من لا دراية له بالصناعة الحديثية أن هذا الأمر هين، ولكنه عند أهل الصنعة عظيم، ولذلك في علم أصول الحديث جعله الأئمة نوعًا من أنواع علوم الحديث، حيث قال الإمام ابن الصلاح في «علوم الحديث» (ص٥٥٢): «النوع الرابع والخمسون: معرفة المتفق والمفترق من الأسماء والأنساب ونحوهما».
ثم قال: هذا النوع متفق لفظًا وخطًا، وزلق بسببه غير واحد من الأكابر». اهـ.
قلتُ: ثم ذكر من أقسامه: «المفترق ممن اتفقت أسماؤهم وأسماء آبائهم».
ومثاله: «الخليل بن أحمد» ستة». اهـ.
وقوله: «زلق بسببه غير واحد من الأكابر». لم يقله من فراغ، ولكن بعد استقراء تام، وبرهان ذلك ما أوردناه آنفًا بأن الإمام الحافظ ابن عدي جعل خالد عبد الرحمن الخراساني، وخالد عبد الرحمن المخزومي واحدًا».
فقال الإمام المزي: «وفرَّق بينهما العقيلي وغيره

وهو الصحيح». وعندما قال الحاكم أبو أحمد: «خالد بن عبد الرحمن المخزومي الخراساني سكن مكة». وجعل المخزومي والخراساني واحدًا.

ردَّ عليه الحافظ ابن حجر فقال: «قوله: الخراساني خطأ». اهـ.

قلتُ: ولذلك فرَّق بينهما الحافظ ابن حجر في المراتب، وهذا مهم جدًا في الصناعة الحديثية؛ حيث جعل الخراساني في مراتب الاستشهاد، وجعل المخزومي في مراتب الرد والترك.

فقال الحافظ ابن حجر في «التقريب» (٢١٥/١): «خالد بن عبد الرحمن الخراساني، أبو الهيثم، نزيل ساحل دمشق، صدوق له أوهام من التاسعة». اهـ. ثم ذكر بعده المخزومي فقال: «خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن سلمة المخزومي المكي متروك وَهِمَ من جعله الأول من التاسعة، مات سنة اثنتي عشرة ومائتين». اهـ.

قلت: «قوله: من التاسعة» أي: من الطبقة الصغرى من أتباع التابعين، أما قوله في الخراساني: «صدوق له أوهام» فهو من المرتبة الخامسة من مراتب الجرح والتعديل، وهي من مراتب الاستشهاد.

أما قوله في المخزومي: «متروك» فهو من المرتبة العاشرة، وهي من مراتب الرد والترك، قال فيها الحافظ ابن حجر في «مقدمة التقريب» (٥/١): «العاشرة: من لم يوثق ألبتة وضعف مع ذلك بقادح، وإليه الإشارة بمتروك أو متروك الحديث أو واهي الحديث أو ساقط». اهـ.

قلت: ولذلك كان لا بد من الفصل بين المخزومي، والخراساني، حتى لا يتقول علينا من لا دراية له بالمتفق والمفترق، خاصة وقد زلق بسببه غير واحد من الأكابر، ولقد طبقنا ذلك في بحثنا هذا كما بينا آنفًا، فقد جعل الإمام الحافظ ابن عدي خالد بن عبد الرحمن الخراساني وخالد بن عبد الرحمن المخزومي واحدًا، وكذلك الحاكم أبو أحمد.

ولقد تبين من التخريج والتحقيق للخبر الذي جاءت به قصة «الباب المفتوح من الجنة في حجر إسماعيل عليه السلام» أن علة هذا الخبر خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن سلمة المخزومي؛ وتبين من أقوال أئمة الجرح والتعديل: أنه ذاهب الحديث، تركوا حديثه، وهو ضعيف مجمع على ضعفه ورُمي بالوضع متروك.

ولذلك قال الحافظ الذهبي في «الموقظة» (ص٤٨): «وأما قول البخاري: «سكتوا عنه» فظاهرها أنهم ما تعرضوا له بجرح ولا تعديل، وعلمنا مقصده بالاستقراء: أنها بمعنى تركوه. وكذا عادته إذا قال: «فيه نظر» بمعنى أنه متهم أو ليس بثقة». اهـ.

وكذلك قال الحافظ ابن كثير في «اختصار علوم الحديث»: «من ذلك أن البخاري إذا قال في الرجل «سكتوا عنه» أو «فيه نظر» فإنه يكون في أدنى المنازل وأردئها، ولكنه لطيف العبارة في التجريح فليعلم ذلك». اهـ.

قلت: فكيف به إذا قال في الراوي: «ذاهب الحديث» كقوله في المخزومي، ولذلك نقل الحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب» (٩٠/٣) عن الإمام البخاري أنه قال في «الأوسط»: «رماه عمرو بن علي بالوضع». اهـ.

قلتُ: وبهذا يتبين معنى قول البخاري: «ذاهب الحديث» أنه رُمي بالوضع، وبين ذلك الإمام الحافظ ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٣٧/٢) فقال: «إذا قالوا ذاهب الحديث، أو متروك الحديث، أو كذاب؛ فهو ساقط الحديث لا يُكتب حديثه». اهـ.

ولقد نقل الإمام الحافظ ابن أبي حاتم عن أبيه تطبيق هذا المصطلح: «ذاهب الحديث» ودلالته في الراوي خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن سلمة المخزومي علة أخرى.

هناك علة أخرى تزيد هذه القصة وهنًا على وهن، وهي المبارك بن حسان.

١- قال الحافظ الذهبي في «الميزان» (٧٠٣٨/٤٣٠/٣): «مبارك بن حسان: قال الأزدي: «يُرْمى بالكذب»، وقال أبو داود: «منكر الحديث»، وقال النسائي: «ليس بالقوي». اهـ.

٢- وأورده ابن عراق في «تنزيه الشريعة

المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة» (٩٨/١) تحت سرد أسماء الوضاعين والكذابين ومن كان يسرق الأحاديث ويقلب الأخبار، ومن اتهم بالكذب والوضع من رواة الأخبار» فذكره في حرف الميم رقم (٤) قال: «المبارك بن حسان، قال الأزدي: رُمي بالكذب». اهـ.

٣- قال الحافظ في «التلخيص» (٥٤٣/١- مستدرك): «المبارك بن حسان: واه». اهـ.

٤- قال الحافظ ابن حجر في «التهذيب» (٢٤/١٠): مبارك بن حسان السلمي أبو يونس البصري ثم المكي. قال أبو داود: منكر الحديث، وقال النسائي: ليس بالقوي في حديثه شيء، وقال الأزدي: متروك يرمي بالكذب، وقال ابن عدي: روى أشياء غير محفوظة». اهـ.

رابعًا: قبر إسماعيل عليه السلام:

قلتُ: بهذا التحقيق الذي تستبين العلل تصبح قصة «الباب المفتوح من الجنة في حجر إسماعيل عليه السلام» واهية، وما في هذه القصة من قول خالد: حيث جاء في آخر الخبر قال خالد: «فيرون أن ذلك الموضع ما بين الميزاب إلى باب الحجر الغربي فيه قبر إسماعيل». اهـ.

قلتُ: هذا الخبر حول قبر إسماعيل عليه السلام لا يصح، وهو من قول خالد وهو ابن عبد الرحمن بن خالد بن سلمة المخزومي، وقد بيَّنا آنفًا من أقوال أئمة الجرح والتعديل أنه ذاهب الحديث، متروك تركوا حديثه، وهو ضعيفٌ مجمَع على ضعفه، رُمِي بالوضع، فهو ساقط الحديث لا يُكتب حديثه. فهذا الخبر الذي يتعلق به القبوريون خبر باطل ساقط.

خامسًا: ما صح في حِجر إسماعيل عليه السلام وأساس الكعبة:

١- أخرج الإمام البخاري في «صحيحه» (ح١٥٨٥) قال: عُبَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَبُو أُسَامَةَ عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَوْلَا حَدَاثَةُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَنَقَضْتُ الْبَيْتَ، ثُمَّ لَبَنَيْتُهُ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا اسْتَقْصَرَتْ بِنَاءَهُ، وَجَعَلْتُ لَهُ خَلْفًا. قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ هِشَامٌ: خَلْفًا يَعْنِي بَابًا. اهـ.

قلت: وأخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» (ح١٣٣٣) قال: «حدثنا يحيى بن يحيى، أخبرنا أبو معاوية، عن هشام بن عروة به، ولفظه: لولا حداثة عهد قومك بالكفر...».

٢- أخرج الإمام البخاري في «صحيحه» (ح١٥٨٦) قال: حدَّثنا بَيَانُ بْنُ عَمْرٍو، حدَّثنا يَزِيدُ، حدَّثنا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ، حدَّثنا يَزِيدُ بْنُ رُومَانَ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهَا: "يَا عَائِشَةُ! لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ؛ لَأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ، وَأَلْزَقْتُهُ بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ، فَذَلِكَ الَّذِي حَمَلَ ابْنَ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَلَى هَدْمِهِ. قَالَ يَزِيدُ: وَشَهِدْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ حِينَ هَدَمَهُ وَبَنَاهُ وَأَدْخَلَ فِيهِ مِنَ الْحِجْرِ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ حِجَارَةً كَأَسْنِمَةِ الْإِبِلِ. قَالَ جَرِيرٌ: فَقُلْتُ لَهُ: أَيْنَ مَوْضِعُهُ؟ قَالَ: أُرِيكَهُ الْآنَ، فَدَخَلْتُ مَعَهُ الْحِجْرَ، فَأَشَارَ إِلَى مَكَانٍ، فَقَالَ: هَا هُنَا. قَالَ جَرِيرٌ: فَحَزَرْتُ مِنَ الْحِجْرِ سِتَّةَ أَذْرُعٍ أَوْ نَحْوَهَا. اهـ.

٣- أخرج مسلم في «صحيحه» من كتاب «الحج» (ح٤٠٣) قال: حدَّثني مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ، حدَّثنا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ، أخبرنا ابْنُ جُرَيْجٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ وَالْوَلِيدَ بْنَ عَطَاءٍ يُحَدِّثَانِ عَنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُبَيْدٍ: وَفَدَ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي خِلَافَتِهِ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: مَا أَظُنُّ أَبَا خُبَيْبٍ (يَعْنِي ابْنَ الزُّبَيْرِ) سَمِعَ مِنْ عَائِشَةَ مَا كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْهَا؟ قَالَ الْحَارِثُ: بَلَى، أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْهَا. قَالَ: سَمِعْتَهَا تَقُولُ مَاذَا؟ قَالَ: قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ قَوْمَكِ اسْتَقْصَرُوا مِنْ بُنْيَانِ الْبَيْتِ، وَلَوْلَا حَدَاثَةُ عَهْدِهِمْ بِالشِّرْكِ أَعَدْتُ مَا تَرَكُوا مِنْهُ؛ فَإِنْ بَدَا لِقَوْمِكِ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَبْنُوهُ فَهَلُمِّي لِأُرِيَكِ مَا تَرَكُوا مِنْهُ، فَأَرَاهَا قَرِيبًا مِنْ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ". قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ لِلْحَارِثِ: أَنْتَ سَمِعْتَهَا تَقُولُ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَنَكَتَ سَاعَةً بِعَصَاهُ، ثُمَّ قَالَ: وَدِدْتُ أَنِّي تَرَكْتُهُ وَمَا تَحَمَّلَ".

هذا ما وفقني الله إليه وهو وحده من وراء القصد.

قرائن اللغة والنقل والعقل على حمل صفات الله (الخبرية) و(الفعلية) على ظاهرها دون المجاز

الحلقة (٢٥)

جميع من صنَّفوا من أهل السنة في أمور الاعتقاد لاسيما ما تعلق منها بباب الصفات، على: التمسك بظواهر النصوص، والتحذير من مخالفتها.. كونها- دون العقل- هي: مصدر التلقي

إعداد/ د. محمد عبد العليم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.. وبعد:

فمن غير ما سبق أن ذكرنا-بالحلقة (٢٤)- من عبارات أئمة السلف المصرحة بإجراء الصفات على ظواهرها ونبذ تأويلات الأشاعرة التي لا مستند لها من آية أو حديث، وذلك من خلال كتبهم التي صنَّفوها في (توحيد الصفات).. نذكر طرفاً من عباراتهم المصرحة بذلك في كتبهم التي صنَّفوها في سائر أمور الاعتقاد التي منها توحيد الصفات.

١- أئمة أهل السنة: على التمسك بما عليه ظواهر النصوص وأجمع عليه الصحابة ومن تبعهم: ففيما ذكره الإمام أحمد في هذا الصدد، قوله في (أصول السنة) ص ٢٥ وما بعدها من رواية العطار: «أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله، والاقتداء بهم، وترك البدع وترك الجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين.. ومن السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة، لم يكن من أهلها: الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه والإيمان بها، ولا يقال: (لمَ؟)، ولا (كيف؟)، إنما هو التصديق والإيمان بها، ومن لم يعرف تفسير الحديث ويبلغه عقله، فقد كُفي ذلك وأُحكِمَ له، فعليه الإيمان به والتسليم له.. ومثلُ ذلك: أحاديث الرؤية كلها لا يَرُدُّ منها حرفاً واحداً، وغيرها من الأحاديث المأثورات عن الثقات.. والحديث عندنا على ظاهره كما جاء عن النبي نؤمن به كما جاء على ظاهره، ولا نناظر فيه أحداً»..

وفي رواية أبي الفضل التميمي من

كتاب (اعتقاد المنبَّل أحمد بن حنبل) ص ٢٨ وما بعدها، يقول أحمد: «إن الله موصوف بما أوجبه السمع والإجماع وذلك دليل إثباته، وفي صفات الله ما لا سبيل إلى معرفته إلا بالسمع، ومذهبه: أن لله وجهاً لا كالصورة والأعيان المخططة، ومن ادعى أن وجهَه نفسُه فقد ألحد، ومن غيّر معناه فقد كفر، وكان يقول: (إن لله يدان، وهما صفة في ذاته ليستا بجارحتين ولا بمركبتين ولا من جنس المحدود والتركيب والأبعاض والجوارح).. وسئل قبل موته بيوم عن أحاديث الصفات، فقال: (تُمَرُّ كما جاءت ونؤمن بها ولا نَردُّ منها شيئاً إذا كانت بأسانيد صحاح، ولا يوصف بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية، ومن تكلم في معناهما: ابتدع)، وكان يقول: (أصحاب الحديث أمراء العلم)».

وللإمام ابن جرير الطبري في كتابه (التبصير ص١٤٨، قوله: «فإن قال لنا منهم قائل: فما أنت قائل في معنى ذلك- يعني المجيء والنزول ونحوهما-؟، قيل له: معنى ذلك ما دل عليه ظاهر الخبر، وليس عندنا للخبر إلا التسليم والإيمان به، فنقول: يجيء ربنا يوم القيامة والملك صفاً صفاً، وينزل إلى السماء الدنيا في كل ليلة، ولا نقول: ينزل أمرُه»..

وفي كتابه (التوحيد وإثبات صفات الرب) يشير الحافظ ابن خزيمة عند ذكر كل صفة من صفات الفعل والخبر إلى موافقة خبر النبي للتنزيل، وإلى وجوب اتباعهما في إثبات ظواهرها وحقيقتها دون تشبيه أو تأويل من قِبَل أهل الزيغ والضلال، وب «أنا لا نصف معبودنا إلا بما وصف به نفسه، إما في كتاب الله أو على لسان نبيه».. ولإمام اللغة أبي بكر الأنباري، قوله فيما نقله عنه الأزهري في (تهذيب اللغة) ٢٠٥/٣: «وعين الله لا تفسر بأكثر من ظاهرها، ولا يسع أحداً أن يقول: كيف هي؟، أو ما صفتها؟».

وفي (شرح السنة) للبربهاري ص٩ وما بعدها: «لا يُتكلم في الرب إلا بما وصف به نفسه في القرآن وما بيَّن رسول الله لأصحابه.. ولا يقول في صفات الرب لم؟، ولا كيف؟، إلا شاك في الله.. واعلم أنه إنما جاء هلاك الجهمية من أنهم فكروا في الرب فأدخلوا لم؟، وكيف؟، وتركوا الأثر ووضعوا القياس وقاسوا الدين على رأيهم.. واضطرهم الأمر إلى أن قالوا بالتعطيل..

واعلم انه لا يزال الناس في عصابة من أهل الحق والسنة، يهديهم الله ويهدي بهم ويحيي بهم السنن.. ومن خالف الكتاب والسنة فهو صاحب بدعة وإن كان كثير الرواية والكتب.. واعلم أنه من قال في دين الله برأيه وقياسه وتأوَّله من غير حجة من السنة والجماعة، فقد قال على الله ما لا يعلم وهو من المتكلفين، والحق ما جاء من عند الله والسنة ما سنه رسول الله والجماعة ما اجتمع عليه أصحاب رسول الله في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، ومن اقتصر على سنة رسول الله وما كان عليه أصحابه والجماعة فاز على أهل البدعة كلهم، وسلم له دينه..

فالله الله في نفسك، وعليك بالآثار وأصحاب الأثر، والتقليد، فإن الدين إنما هو التقليد يعني: للنبي وأصحابه».. وعن الآجري، يقول الحسن البغدادي في كتابه (المختار في أصول السنة) ص١٦٥: «وأما كتاب (الشريعة) الذي جمعه الآجري ونصح فيه، فجميع أخبار الصفات ساقها فيه، وأمرَّها على ظاهرها».

وللكرجي المعروف بالقصاب، قوله كما في السِّيَر ٢١٣/١٦: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به نبيه، وكل صفة وصف بها نفسه أو وصفه بها نبيه فهي صفة حقيقية لا صفة مجاز، ولو كانت صفة مجاز لتحتم تأويلها ولفسِّرت بغير السابق إلى الأفهام»..

ولإبراهيم بن أحمد بن شاقلا قوله فيما نقله عنه صاحب طبقات الحنابلة ١٣٥/٢: «هذه الأحاديث- أي: أحاديث الصفات- ليس لأحد أن يمنعها ولا يتأولها ولا يسقطها، لأن الرسول

لو كان لها معنى عنده غير ظاهرها لبيّنه، ولكان الصحابة حين سمعوا ذلك منه سألوه عن معنىً غير ظاهرها، فلما سكتوا وجب علينا أن نسكت حيث سكتوا، ونقبل طوعاً ما قبلوا».

وللقاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي قوله كما في شرحه على قول ابن أبي زيد القيرواني (وأن الله يجيء يوم القيامة): «أثبت نفسه جائياً، ولا معنى لقول من يقول: (إن المراد: جاء أمر ربك)، لأن ذلك إضمار في الخطاب يزيله عن مفهومه ويحيله عن ظاهره».. وللإمام السجزي في رسالته (إلى أهل زبيد) ص ١٢١، قوله: «قول المتكلمين في نفي الصفات، أو إثباتها بمجرد العقل، أو حملها على تأويل مخالف للظاهر ضلال، ولا يجوز أن يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله».

وفي مقدمة كتابه (الإبانة)، يقول الإمام العكبري المعروف بابن بطة، في سبب تأليفه إياه: «إني لما رأيت ما قد عمَّ الناس وأظهروه، وغلب عليهم فاستحسنوه من فظائع الأهوال وتحريف سنتهم، حتى صار ذلك سبباً لفرقتهم وفتَحَ باب البلية والعمى على أفئدتهم، فنبذوا الكتاب وراء ظهورهم من بعد ما جاءهم العلم من ربهم، واحتجوا بالبهتان فيما ينتحلوه وقلدوا في دينهم الذين لا يعلمون فيما لا برهان لهم من الكتاب ولا حجة لهم فيه من الإجماع من محدثات البدع، جمعتُ في هذا الكتاب طرفاً مما سمعناه وجملاً مما نقلناه عن أئمة الدين وأعلام المسلمين مما نقلوه لنا عن رسول رب العالمين، وقدمت بين يدي ذلك: التحذير من الشذوذ، وما أمر الله به رسوله من لزوم الجماعة ومباينة أهل الزيغ والتفرق والشناعة، وما يلزم أهل السنة من المجانبة والمباينة لمن خالف عَقْدَهم ونكث عهدهم، فجمعتُ من ذلك ما لا يسع المسلمين جهله، ولا يُنظر إلى من خالفه وطعن عليه ممن عمي عن رشده حين خالف المصطفى والراشدين».

وراح يعقد أبواباً في التمسك بالسنة ولزوم أهلها، والتحذير من البدع والخصومات وتجنب أربابها، ويسوق ضمن ما أجمع عليه سلف الأمة من أمور الاعتقاد: «الإيمان والقبول والتصديق بكل ما روته العلماء ونقلته الثقات أهل الآثار عن رسول الله وتلقوها بالقبول.. مثل أحاديث الصفات»، إلى أن قال ص٢٤٩ بعد أن ذكر الكثير منها: «فكل هذه الأحاديث وما شاكلها، تُمَرُّ كما جاءت، ولا تُعارض، ولا تُضرب لها الأمثال، ولا يُواضع فيها القول، فقد رواها العلماء وتلقاها الأكابر منهم بالقبول».

وبنحو ذلك فعل ابن أبي زمنين، ففي مقدمة كتابه (أصول السنة)، عقد باباً (في الحض على لزوم السنة واتباع الأئمة)، وبعد أن حشد في ذلك العديد من الأحاديث والآثار قال: «واعلم: أن أهل العلم بالله وبما جاءت به أنبياؤه ورسله.. ينتهون من وصفه بصفاته إلى حيث انتهى من كتابه وعلى لسان نبيه»، وطفق يعقب ذلك بذكر جملة من الصفات الخبرية والفعلية، وجملة من أمور الاعتقاد..

إلى أن ختم كتابه بقوله تحت عنوان (النهي عن مجالسة أهل الأهواء): «ولم يزل أهل السنة يعيبون أهل الأهواء المضلة، وينهون عن مجالستهم، ويخوفون فتنتهم ويخبرون بخلاقهم، ولا يرون ذلك غيبة لهم ولا طعناً عليهم»..

وبنحوه فعل الصابوني في كتابه (عقيدة السلف وأصحاب الحديث)، ومما نقله عنهم ص٣٩، ٤٤، ٥٠: أنهم في جميع الصفات «ينتهون إلى ما قاله الله وقاله رسوله من غير زيادة عليه ولا إضافة إليه ولا تكييف له ولا تشبيه، ولا تحريف ولا تبديل ولا

تغيير، ولا إزالة للفظ الخبر عما تعرفه العرب وتضعه عليه، بتأويل، ويجرونه على الظاهر.. ويطلقون ما أطلقه سبحانه من استوائه على عرشه، ويُمرُّونه على ظاهره.. ويُثبت أصحاب الحديث نزول الرب كل ليلة إلى سماء الدنيا، ويُمرُّون الخبر الوارد بذكره على ظاهره».

وقال ص ٤٨: «والفرق بين أهل السنة وبين أهل البدعة: أن أهل البدعة إذا سمعوا خبراً في صفات الرب ردُّوه أصلاً، ولم يقبلوه أو يسلموا للظاهر، ثم تأولوه بتأويل يقصدون به رفع الخبر من أصله وإعمال حيل عقولهم وآرائهم فيه».. ثم ختم معتقده بالقول بأن «من تمسك اليوم بسنة رسول الله وعمل بها واستقام عليها ودعا إليها، كان أجره أوفر وأكثر من أجر من جرى على هذه الجملة في أوائل الإسلام والملة، إذ الرسول قال: (له أجر خمسين)، فقيل: خمسين منهم؟، قال: (بل منكم)، وإنما قال ذلك لمن يعمل بسنته عند فساد أمته».. وكذا فعل أبو محمد عبد الغني المقدسي في كتابه (الاقتصاد في الاعتقاد).

٢- واللالكائي في (شرح أصول اعتقاد أهل السنة) وابن أبي العز في (شرح الطحاوية)، أيضاً على حمل نصوص الصفات على ظاهرها؛ وقريب مما فعل مَن ذكرنا، كان صنيع اللالكائي، فقد بدأ كتابه (شرح أصول السنة)، بباب في (سياق من وُسم بالإمامة في السنة والدعوة والهداية إلى طريق الاستقامة بعد رسول الله) وذكرهم بأعيانهم وطبقاتهم وبلدانهم.

ثم ثنى بباب في (سياق ما روي في ثواب من حفظ السنة وأحياها ودعا إليها)، ثم (في الحث على الاتِّباع وأن سبيل الحق هو السنة والجماعة)، ثم في (الحث على التمسك بالكتاب والسنة وعن الصحابة والتابعين ومن بعدهم)، ثم (في النهي عن مناظرة أهل البدع وجدالهم والمكالمة معهم والاستماع إلى أقوالهم المحدثة وآرائهم الخبيثة)، ثم في (جمل اعتقاد أهل السنة والتمسك بها والوصية بحفظها قرناً بعد قرن)، ثم في (وجوب معرفة الله وصفاته بالسمع لا بالعقل).

وذكر النصوص والآثار في كل ذلك، ثم ذكر في اعتقاد أحمد رواية العطار السالفة الذكر، وكلاماً شبيهاً به نقله عن الثوري وابن المديني وأبي زرعة والطبري في معتقداتهم.

ثم ذكر في الجزء الثالث من المجلد الأول أيضاً أقوال السلف في الإثبات وكان مما ذكره عن الوجه والعينين واليدين والنزول: قول ابن المبارك وقد سئل عمن يجد في نفسه شيئاً لوصف الله بما وُصف به: «أنا أشد الناس كراهة لذلك، ولكن إذا نطق الكتاب بشيء، وإذا جاءت الآثار بشيء جسرنا عليه» أي قدمنا واجترأنا للكلام به، وقول محمد بن الحسن: «اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله في صفة الرب.. ولم يصفوا ولم يفسروا- يعني: بما فسر به جهم ومن تبعه- ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة، فمن قال بقول (جهم) فقد فارق الجماعة، لأنه وصفه بصفة لا شيء».

وقوله عن أحاديث النزول: «إن هذه الأحاديث روتها الثقات فنحن نرويها ونؤمن بها ولا نفسرها»، ثم ذكر عقيب ذكر الأحاديث والآثار في رؤية الله، قول شُريك وقد سئل عنها وعن أحاديث النزول وما أشبه: «إنما جاءنا بهذه الأحاديث من جاءنا بالسنن في الصلاة والزكاة والحج، وإنما عرفنا الله بهذه الأحاديث»، وقول نعيم بن حماد شيخ البخاري: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً» وتكملته: «فمن أثبت لله ما أثبته لنفسه مما وردت به الآيات الصريحة ووصفه به رسوله مما ورد في الأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله وعظمته، ونفى عن الله النقائص، فقد سلك سبيل الهدى»، وقد ساق هذه الزيادة الشيخ

حكمي صاحب (معارج القبول) ١/٢٩٥ وذلك إبان شرح قوله في (سلم الوصول):

وكل ما له من الصفات
أثبتَها في محكم الآيات
أو صح فيما قاله الرسول
فحقُّه التسليمُ والقبولُ
نُمِرُّها صحيحة كما أتت
مع اعتقادنا لما له اقتضت
من غير تحريف ولا تعطيل
وغير تكييف ولا تمثيل
بل قولنا قول أئمة الهدى
طوبى لمن بهديهم قد اقتدى

ولشيخ الإسلام الهروي في كتابه (منازل السائرين) ٨٤/٢، قوله في تعظيم حرمات الله: «الدرجة الثانية: إجراء الخبر على ظاهره، وهو: أن تبقى أعلام توحيد العامة الخبرية، على ظواهرها، ولا يُتكلف لها تأويلاً، ولا يُتجاوز ظاهرها تمثيلاً، ولا يُدَّعي عليها إدراكاً أو توهماً»..

ويقول ابن أبي العز إبان شرحه قول الطحاوي: (ولا يصح الإيمان بالرؤية بوَهم، أو تأولها بفهم) ص ١٥١: «قوله: (أو تأولها بفهم)، أي: ادعى أنه فهم لها تأويلاً يخالف ظاهرها وما يفهمه كل عربي من معناها، فإنه قد صار اصطلاح المتأخرين في معنى التأويل: (أنه صرف اللفظ عن ظاهره، وبهذا تسلط المحرفون على النصوص)، وقالوا: (نحن نؤول ما يخالف قولنا)، فسموا التحريف تأويلاً، تزييناً له وزخرفة ليُقبل، وقد ذم الله الذين زخرفوا الباطل فقال: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم زخرف القول غروراً) (الأنعام: ١١٢)، والعبرة للمعاني لا للألفاظ، فكم من باطل قد أقيم عليه دليل مزخرف عورض به دليل الحق. وكلامه هنا نظير قوله فيما تقدم: (لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا)، ثم أكد هذا المعنى بقوله هنا: (إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية: ترك التأويل ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين)، ومراده: ترك ما يسمونه تأويلاً، وهو تحريف».

كما أوضح ابن الوزير في كتابه (إيثار الحق على الخلق) أن طرق معرفة الله منحصرة فيما أتى به الأنبياء، وان أهل البدع الواجب الحذر منهم هم من زادوا في الدين أو نقصوا منه، وكان من مظاهر نقصهم: «رد النصوص والظواهر ورد حقائقها إلى المجاز من غير طريق قاطعة تدل على ثبوت الموجب للتأويل، إلا مجرد التقليد لبعض أهل الكلام في قواعد لم يتفقوا عليها»..

وأشار الملا علي القاري في شرحه للفقه الأكبر ص٩٦ إلى أن صفات «الغضب والرضا الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد، وإن كان كل منهما حقيقة، وصرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب، حرام».. ومن غير من سبق ذكرهم جاء في منظومة الإمام السفاريني، ما نصه:

فكل ما قد جاء في الدليل
فثابت من غير ما تمثيل
من رحمة ونحوها ك (وجهه)
ويده وكل ما من نهجه
وعينه وصفة النزول
وخلقه فاحذر من النزول
فسائر الصفات والأفعال
قديمة لله ذي الجلال

كما ذكر العلامة أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي في كتابه (غرائب الاغتراب) ص ٣٨٤، ما نصه: «يشهد لحقيقة مذهب السلف في المتشابهات، وهو إجراؤها على ظواهرها مع التنزيه: إجماع القرون الثلاثة الذين شهد بخبرتهم خير البشر صلى الله عليه وسلم»..

وإلى لقاء آخر نستكمل الحديث والحمد لله رب العالمين.



وسائل الخشوع في الصلاة

إعداد/ صلاح نجيب الدق

الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا، والصلاة والسلام على نبينا محمد، الذي أرسله ربه هادياً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

أَمَّا بَعْدُ: فقد سبق معنا في العدد الماضي الحديث عن بعض وسائل الخشوع في الصلاة، ونكمل في هذا العدد فنقول وبالله تعالى التوفيق: من وسائل الخشوع في الصلاة أيضًا:

(١٣) معرفة أن الخشوع في الصلاة من أسباب مغفرة الذنوب:

من الأسباب التي تجعل المسلمَ يخشعُ في صلاته أن يَعْلَمَ أنَّ خشوعه في صلاته هو سببُ مغفرة ذنوبه، وحصوله على مرضاة الله تعالى في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون: ١-٢) قال ابنُ عبَّاس: خاشِعُونَ خائفُونَ ساكنُونَ.

وقَالَ عَلِيُّ بْنُ أبي طَالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الْخُشُوعُ خُشُوعُ الْقَلْبِ. (تفسير ابن كثير: ٥/٤٠٢).

(١٤) التفكر في معاني أفعال وأقوال الصلاة:

إن تفكُّرَ المصلي وتدبُّرَهُ في المعاني العظيمة للأفعال والأقوال المشروعة في الصلاة، له أثرٌ عظيمٌ في خشوعه في صلاته.

أولاً: أثناء القيام في الصلاة:

يجبُ على المصلي أن يتذكر وقوفه بين يدي الله تعالى يوم القيامة للحساب.

ثانياً: الركوع والسجود:

روى مسلمٌ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم إذا رَكَعَ، قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي» (مسلم حديث: ٧٧١).

يَنْبَغِي لك أيها المسلم أَنْ تُجَدِّدَ عِنْدَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُود، ذِكْرَ كِبْرِيَاءِ الله سُبْحَانَهُ وَتَرْفَعَ يَدَيْكَ مُسْتَجِيرًا بِعَفْوِ الله عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عقابه، ثُمَّ تَسْتَأْنِفَ لَهُ ذُلًّا وَتَوَاضُعًا بِرُكُوعِكَ، وَتَجْتَهِدَ فِي تَرْقِيقِ قَلْبِكَ فَتُسَبِّحَ رَبَّكَ وَتَشْهَدَ لَهُ بِالْعَظَمَةِ وَأَنَّهُ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ عَظِيمٍ.

ثُمَّ تَرْتَفِعَ مِنْ رُكُوعِكَ مُؤَكِّدًا لِلرَّجَاءِ فِي نَفْسِكَ بِقَوْلِكَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» أَيْ أَجَابَ لِمَنْ شَكَرَهُ، ثُمَّ تَرْدُفُ ذَلِكَ بِالشُّكْرِ الْمُتَقَاضِي لِلْمَزِيدِ فَتَقُولُ: «رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ» وَتُكْثِرُ الْحَمْدَ بِقَوْلِكَ: «مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ»، ثُمَّ تَهْوِي إِلَى السُّجُودِ وَهُوَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الِاسْتِكَانَةِ فَتُمَكِّنُ أَعَزَّ أَعْضَائِكَ وَهُوَ الْوَجْهُ مِنْ أَذَلِّ الْأَشْيَاءِ وَهُوَ التُّرَابُ، فَعِنْدَ هَذَا جَدِّدْ عَلَى قَلْبِكَ عَظَمَةَ اللهِ وَقُلْ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى» وَأَكِّدْهُ بِالتَّكْرَارِ ثُمَّ ارْفَعْ رَأْسَكَ مُكَبِّرًا وَسَائِلاً حَاجَتَكَ وَقَائِلاً: «رَبِّ اغْفِرْ لِي» ثُمَّ أَكِّدِ التَّوَاضُعَ بِالتَّكْرَارِ فَعُدْ إِلَى السُّجُودِ ثَانِيًا كَذَلِكَ.

ثالثاً: التشهد:

أيها المسلم الكريم: إِذَا جَلَسْتَ لِلتشهد، فَاجْلِسْ مُتَأَدِّبًا وَمُعْتَرِفًا بِأَنَّ جَمِيعَ مَا تَقُومُ مِنَ الصَّلَوَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ أَيْ مِنَ الْأَخْلَاقِ الطَّاهِرَةِ لِلَّهِ، وَكَذَلِكَ الْمُلْكُ لِلَّهِ، وَقُلْ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ» ثُمَّ تُسَلِّمُ عَلَى نَفْسِكَ وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، ثُمَّ تَشْهَدُ لَهُ تَعَالَى بِالْوَحْدَانِيَّةِ «وَلِمُحَمَّدٍ» نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم بِالرِّسَالَةِ

مُجَدِّدًا عَهْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِإِعَادَةِ كَلِمَتَيِ الشَّهَادَةِ.

ثُمَّ ادْعُ فِي آخِرِ صَلَاتِكَ بِالدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ مَعَ التَّوَاضُعِ وَالْخُشُوعِ وَالضَّرَاعَةِ وَالِابْتِهَالِ وَصِدْقِ الرَّجَاءِ بِالْإِجَابَةِ. وَاسْتَشْعِرْ شُكْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى تَوْفِيقِهِ لَكَ لِإِتْمَامِ هَذِهِ الطَّاعَةِ، ثُمَّ أَشْعِرْ قَلْبَكَ الْوَجَلَ وَالْحَيَاءَ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الصَّلَاةِ، وَخَفْ أَنْ لَا تُقْبَلَ صَلَاتُكَ وَأَنْ تَكُونَ مَمْقُوتًا بِذَنْبٍ ظَاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ فَتُرَدَّ صَلَاتُكَ فِي وَجْهِكَ وَتَرْجُو مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَقْبَلَهَا بِكَرَمِهِ وَفَضْلِهِ. (موعظة المؤمنين، جمال الدين القاسمي ص٤١، ٤٠).

(١٥) اجتناب العبث بالثياب أو بأعضاء الجسم أثناء الصلاة.

انشغالُ المصلِّي بالعبث بثيابه أو بأعضاء جسمه يصرفه عن الخشوع في الصلاة، فيجب على المسلم أن يتجنب ذلك، لأن الطمأنينة من أركان الصلاة.

روى عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ أَبَانَ قَالَ: رَأَى ابْنُ الْمُسَيَّبِ رَجُلًا يَعْبَثُ بِلِحْيَتِهِ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ: «إِنِّي لَأَرَى هَذَا لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ خَشَعَتْ جَوَارِحُهُ» (مصنف عبد الرزاق ٢/٢٦٦، رقم: ٣٣٠٨)

قال ابنُ عثيمين رحمه الله: «يُكْرَهُ عَبَثُ المُصلِّي، وهو تشاغله بما لا تدعو الحاجة إليه، وذلك لأن العبث فيه مفاسد:

المفسدة الأولى: انشغال القلب، فإنَّ حركةَ البَدَنِ تكون بحركة القلب، ولا يُمكن أن تكون حركة البَدَنِ بغير حركة القلب، فإذا تحرَّك البَدَنُ لزم من ذلك أن يكون القلب متحركاً، وفي هذا انشغال عن الصَّلاة.

المفسدة الثانية: أنَّه على اسمه عبثٌ ولغو، وهو يُنافي الجديَّة المطلوبة من الإنسان في حال الصَّلاة.

المفسدة الثالثة: أنه حركة بالجوارح، دَخيلَةٌ على الصَّلاة، لأنَّ الصَّلاةَ لها حركات معيَّنَة من قيام وقعود وركوع وسُجود». (الشرح الممتع على زاد المستقنع، لابن عثيمين ٣/٢٣٢).

(١٦) المحافظة على السنن الرواتب قبل الفريضة وبعدها:

إن المحافظة على السنن الرواتب التي قبل صلاة الفريضة يساعدُ القلبَ على الخشوع في الفريضة، والمحافظة على السنن الرواتب التي بعد الصلاة يجبرُ النقص، والخلل في الخشوع أثناء إقامة الصلاة المفروضة.

(١٧) إزالة ما يشغل المسلم أثناء الصلاة:

يجبُ على المسلم أن يلقي أمور الدنيا وهمومها خَلفَ ظَهْرِه قبل الدخول في الصلاة، ويحاول أن يتخلصَ مما يجعله ينشغل في صلاته، فإذا كان جائعاً، فعليه أن يتناول طعامه، وإن كان محتاجاً لدخول دورة المياه، فعليه أن يقضي حاجته أولاً، وقد جاءت سُنَّةُ نبينا صلى الله عليه وسلم بذلك.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلَا هُوَ (أيْ المُصلي) يُدَافِعُهُ الْأَخْبَثَانِ. (مسلم حديث ٥٦٠).

قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رحمه الله: هَذَا الْحَدِيثُ دَلِيلٌ عَلَى كَرَاهَةِ الصَّلَاةِ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ الَّذِي يُرِيدُ أَكْلَهُ لِمَا فِيهِ من اشْتِغَالِ الْقَلْبِ به وَذَهَابِ كَمَالِ الْخُشُوعِ وَكَرَاهَتِهَا مَعَ مُدَافَعَةِ الْأَخْبَثَيْنِ، وَهُمَا الْبَوْلُ وَالْغَائِطُ، وَيَلْحَقُ بِهَذَا مَا كَانَ فِي معناه مما يَشْغَلُ الْقَلْبَ وَيُذْهِبُ كَمَالَ الْخُشُوعِ. (مسلم بشرح النووي ٥/٤٦).

قال الإمامُ ابنُ قدامة: (رحمه الله): إِذَا حَضَرَ الْعَشَاءُ فِي وَقْتِ الصَّلَاةِ، فَالْمُسْتَحَبُّ أَنْ يَبْدَأَ بِالْعَشَاءِ قَبْلَ الصَّلَاةِ؛ لِيَكُونَ أَفْرَغَ لِقَلْبِهِ، وَأَحْضَرَ لِبَالِه، وَلَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَعْجَلَ عَنْ عَشَائِهِ أَوْ غَدَائِهِ. (المغني، لابن قدامة ١/٤٥٠).

نبينا هو القدوة الحسنة في الخشوع:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ قَالَ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يُصَلِّي وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ (صَوْتٌ) كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ» يَعْنِي: يَبْكِي. (حديث صحيح) (صحيح سنن النسائي، للألباني ١/٣٩١، حديث: ١٢١٣).

قَوْلُهُ: (كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ) أَيْ: كَصَوْتِ الْقِدْرِ عِنْدَ غَلَيَانِهِ. (مرقاة المفاتيح، علي الهروي ٢/٧٩١).

صور مشرقة لصلاة السلف الصالح:

سوف نَذْكُرُ بعض الصور لصفة صلاة سلفنا الصالح، ولا نزكي على الله تعالى أحداً.

(١) كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه، في صلاته كأنَّه وَتِدٌ. (إحياء علوم الدين، للغزالي ١/١٦٩).

(٢) قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ: سَمِعْتُ نَشِيجَ عُمَرَ

بن الخطاب رضي الله عنه، وأنا في آخر الصفوف يقرأ: (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ) (يوسف: ٨٦).

النشيج: صوت معه توجع. كما يُرَدِّدُ الصبيُّ بكاءه في صدره. (شرح السنة، للبغوي ٣/٢٤٥).

كان علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب إذا توضأ اصفر لونه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء فيقول: تدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟ (تاريخ دمشق، لابن عساكر ٤١/٣٧٨).

(٣) قال ثابت البناني: كُنْتُ أَمُرُّ بابن الزبير، وهو خلف المقام يصلي، كأنه خشبة منصوبة لا تتحرك. (سير أعلام النبلاء للذهبي ٣/٣٦٩).

(٤) كان عاصم بن أبي النجود إذا صلى، ينتصب كأنه عود. (سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/٢٥٩).

(٥) قال عبد الله بن مسلم: ما رأيت سعيد بن جبير قط يصلي إلا كأنه وتد. (الطبقات الكبرى، لابن سعد ٦/٢٧٦).

(٦) قال ميمون بن حيان: ما رأيت مسلم بن يسار ملتفتا في صلاته قط خفيفة ولا طويلة، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدمه، وإنه لفي المسجد في الصلاة فما التفت» (حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني ٢/٢٩٠).

(٧) قال الحسين المجاشعي: قيل لعامر بن عبد قيس: أتحدث نفسك في الصلاة؟ قال: أحدثها بالوقوف بين يدي الله، ومنصرفي. (سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/١٧).

(٨) سُئل حاتم الأصم عن صلاته فقال: إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم إلى صلاتي، وأجعل الكعبة بين حاجبي والجنة عن يميني، والنار عن شمالي، وملك الموت ورائي، أظنها آخر صلاتي ثم أقوم بين الرجاء والخوف، وأكبر تكبيرًا بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل، وأركع ركوعًا بتواضع، وأسجد سجودًا بتخشع وأقعد على الورك الأيسر وأفرش ظهر قدمها وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأتبعها الإخلاص ثم لا أدري أقبلت مني أم لا. (إحياء علوم الدين للغزالي ١/١٥١).

(٩) قال معمر، مؤذن سليمان التيمي: صلى إلى جنبي سليمان التيمي بعد العشاء الآخرة، وسمعته يقرأ (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)(الملك: ١) قال: فلما أتى على هذه الآية (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) (الملك: ٢٧) جعل يرددها حتى خف أهل المسجد فانصرفوا، قال: فخرجت وتركته قال: وغدوت لأذان الفجر فنظرت فإذا هو في مقامه، قال: فسمعت فإذا هو فيها لم يجزها وهو يقول (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) (حلية الأولياء أبو نعيم الأصبهاني ٣/٢٩).

(١٠) قال القاسم بن معن: إن أبا حنيفة قام ليلة يردد قوله تعالى: (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) (القمر: ٤٦)، ويبكي، ويتضرع إلى الفجر. (سير أعلام النبلاء للذهبي ٦/٤٠١).

(١١) روى أبو داود عن جابر بن عبد الله، قال: نزل النبي صلى الله عليه وسلم منزلا، فقال: من رجل يكلؤنا؟(يحرسنا) فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فقال: «كونا بفم الشعب»، قال: فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب اضطجع المهاجري، وقام الأنصاري يصلي، وأتى رجل من المشركين، فلما رأى شخصه(أي الأنصاري) عرف أنه ربيئة للقوم، فرماه بسهم فوضعه فيه فنزعه، حتى رماه بثلاثة أسهم، ثم ركع وسجد، ثم انتبه صاحبه، فلما عرف أنهم قد نذروا به(علموا بمكانه) هرب، ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدم، قال: سبحان الله ألا أنبهتني(أيقظتني) أول ما رمى، قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها. (حديث حسن)(صحيح أبي داود للألباني، حديث:١٨٢).

قوله: (كونا بفم الشعب) أي قفا بأول الطريق الذي يلي العدو.

قوله: (ربيئة للقوم) الشخص الذي يقف في مقدمة الجيش لحمايتهم من العدو.

قوله: (فنزعه) أي نزع الأنصاري السهم من جسده واستمر في الصلاة.

قوله: (ثم ركع وسجد) يعني: ركع وسجد الأنصاري، ولم يقطع صلاته، لاشتغاله بحلاوتها عن مرارة ألم الجرح. (عون المعبود ١/٢٣٠).

نسأل الله أن يرزقنا الخشوع في الصلاة، وأن يتقبل منا سائر أعمالنا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

التعصب وأثره السيئ في ماضي الأمة وحاضرها (داء ودواء)

الحلقة الثالثة

إعداد/ د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي علم بالقلم والصلاة والسلام على نبينا محمد المقدم العلم وعلى آله وصحبه أئمة الهدى ومصابيح الظلم وبعد:

أثر قفو الأثر واتباع السُّنن:

ففي المقال السابق كان الحديث عن محنة التعصب للمذاهب الفقهية والكلامية والتي استمرت قرونا متتابعة.

وَبَعْدَ قُرُونٍ خَلَتْ وَخَفَّتْ آثارُ هذه المِحْنَةُ (أي: عصبية المذاهب) خَفَتَ أَهْلُها، وَبَهتَ وَشْيُ (أي: نقش) ثُوبِهَا، وَظَهَرَ فِقْهُ الدَّلِيلِ، وَعَظُمَ قَفْوُ الأَثَرِ حتَّى تَهَلَّلَتْ سُبُحاتُ وُجُوهِ المُخْلِصِينَ لأُمَّتِهِمْ فَرِحِينَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ، وَيَبُسَتْ شِفَاهُ الرُّمَاةِ لأُمَّتِهِمْ الغَاشِينَ لَهَا مَهْمُومِينَ مَغْمُومِينَ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا جَزَاءً وِفَاقًا.

وَظَهَرَتْ مَدْرَسَةُ ابْنِ تَيْمِيَّةَ الَّتِي أَظْهَرَتْ في زَمَانِهَا مَعَالِمَ النُّبُوَّةِ وَجَاهَدُوا- في اللهِ- التَّعَصُّبَ حَقَّ جِهَادِهِ، وَحَارَبُوا البِدَعَ وَالمُحْدَثَاتِ، وَدَاوَوْا هَذِهِ الجِرَاحَ حَتَّى عَادَ الإِسْلَامُ نَقِيًّا صَافِيًا.

وَقَدْ كَانَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ- في هَذَا الزَّمَنِ المَائِجِ بِأَهْلِهِ- رَجُلَ الأُمَّةِ وَسَهْمَهَا إِذَا طَاشَتِ السِّهَامُ، وَرُكْنَهَا الشَّدِيدَ حِينَ وَهَتِ الأَرْكَانُ، وَكَانَ قَدْ جَمَعَ العُلُومَ فَأَوْعَى،وَدَعَا أَنْوَاعَهَا فَقَالَتْ: سَمْعًا وَطَوْعًا،وَضَمَّ حُسْنَ القَرِيحَةِ إِلَى الفِكْرَةِ الصَّحِيحَةِ.

فَقَدْ وَاجَهَ المُتَعَصِّبَةَ فَكَانُوا إِلْبًا عَلَيْهِ، فَأَثَارُوا عَلَيْهِ الوُلَاةَ، وَغَيَّرُوا قُلُوبَهُمْ عَلَيْهِ وَمَعَ هَذَا فَلَّ جُيُوشَهُم، ، فَسَلَّمُوا لإِمَامَتِهِ، وانقادوا لقوة دليله وسلامته، وَلَمْ يَجِدُوا مفرًا عَنْ إِذْعَانِهِمْ لِسَعَةِ عُلُومِهِ وَتَبَحُّرِ مَعَارِفِهِ.

وَصَارَ عِلْمُهُ فِي النَّاسِ عَظِيمَ النَّفْعِ، وَفِي النُّفُوسِ طَيِّبَ الوَقْعِ، وَفَاضَ وَادِيهِ حَتَّى بَلَغَ الرَّوَابِيَ، وَمَلأَ الخَوَابِيَ، وَأَصْبَحَتْ عُلُومُهُ مُورِقَةَ الأَشْجَارِ، وَمَعَارِفُهُ جَارِيَةَ الأَنْهَارِ بِالفَوَائِدِ الغِزَارِ، فَاقْتَدَى بِهِ مَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا.

وَنَهَلَ مِنْ عِلْمِهِ مَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ وَقَامَ بِنَشْرِهِ طَائِفَةٌ مِنَ المُحَقِّقِينَ قَيَّضَهُمُ اللهُ لَهُ فَنَهَضُوا بِعِلْمِهِ بِرًّا بِهِ وَامْتِنَانًا بِجَمِيلِهِ وَعِرْفَانًا بِهِ كَابْنِ القَيِّمِ وَالذَّهَبِيِّ وَابْنِ كَثِيرٍ وَابْنِ عَبْدِ الهَادِي وَغَيْرِهِمْ فَبَثُّوا فِي النَّاسِ حُبَّ السُّنَنِ وَتَوْقِيرَ أَئِمَّةِ المَذَاهِبِ مَعَ عَدَمِ تَقْدِيمِ أَقْوَالِهِمْ عَلَى قَوْلِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَكَانَ لَهُمُ الأَثَرُ فِيمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ بِقُرُونٍ مِنْ بَاعِثِي اليَقَظَةِ فِي الأُمَّةِ وَنَافِخِي رُوحِهَا فِيهَا كَالصَّنْعَانِيِّ وَابْنِ عَبْدِ الوَهَّابِ وَالشَّوْكَانِيِّ وَغَيْرِهِمْ.

عَوْدٌ إلى العصبيَّة غيرُ حميد، ورجعٌ إليها ليس ببعيد:

مَتَاعٌ قليلٌ قضَتْهُ الأمَّةُ في عافيةٍ من داء التَّعصُّب، ثُمَّ وقَعَ بالنَّاس خلافٌ وَشَرٌّ، ولَمْ يطلْ بقاءُ هذا الصُّبحِ الذي أَسْفرَ بالهُدى والعلمِ المتَّبعِ حتَّى أدْبَرَ، وأقبلَ ليلٌ قد ادْلهَمَّ ظلامُه، ونَزَلَ بنا سَيْلُ خلافٍ قد انْعقدَ غمامُه.

أَنْكرْتُها بعْدَ أعْوامٍ مضَيْنَ لَها
لا الدارُ دارًا ولا الجيرانُ جيرانا

فلَمْ تَلْبثْ هذه النِّعْمَةُ طويلاً حتَّى ظهرَتْ عصبيَّةٌ جديدةٌ وهيَ عصبيَّةُ الأفكار.

ومَا يُسمَّى (التيارات الإسلامية المُختلفة) فظهرَتْ جماعاتٌ متخالفةٌ- صحيحٌ أنَّ اللهَ تعالَى أجرَى عَلى يديْهَا للأمَّةِ خيْرًا كثيرًا فهُوَ حَقٌّ يُذكرُ وحقيقةٌ لا تُنكَرُ-

فكَمْ منْ أُناسٍ تسبَّبُوا في هدايتهمْ، وكَمْ منْ ضالٍّ اهتدَى وأصْبحَ منَ الغيُورينَ علَى دينهمْ.

بَلْ كَمْ منْ أُناسٍ كانُوا منْ مَردَةِ وشَياطينِ الإنْسِ فأصْبحَ الواحدُ منْهُمْ داعيةً لدينهِ مُدافعًا عَنْهُ غيُورًا عليْه.

ومَا شأنُ بعْضِ الجَماعاتِ المُشْتغلةِ بالدعْوةِ عنَّا ببعيدٍ.

إنَّ المُنْبَغي بَلْ الواجبَ أنْ يفْهمَ العاملُونَ في مضْمارِ الدعوة وهداية النَّاس وإصلاحهم أن قيام الدين وبعث الملة جَذعةً فتيَّةً- كمَا كانَ عنْدَ السَّلفِ الأوائلِ- لَنْ يُستطاعَ بطائفةٍ واحدةٍ بَلْ لابُدَّ منْ كثرةٍ كاثرةٍ مُستقيمةٍ علَى منْهجِ السَّلفِ الصَّالحِ جُملةً وتفصيلاً، مُتراحمةٍ فيمَا بيْنَهُمْ إخوةً مُتحابِّينَ كمَا قالَ تعالَى: «ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ» (البلد: ١٧- ١٨)، لأنهم في الأصل كشيءٍ واحدٍ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأنْبياءُ إخْوةٌ لعَلاَّتٍ، أُمَّهاتُهُمْ شتَّى ودِينُهُمْ واحدٌ» (صحيح البخاري:(٣٤٤٣)).

فكما أن الأنبياء أصل دينهم واحد إنما يتفاوتون في الشرائع فكذلك ينبغي أن يكون العاملون للإسلام أصلهم واحد.

قال الحافظ ابن حجر: «والعَلاَّتُ بفتح المُهْملة الضَّرائرُ وأصْلُهُ أنَّ منْ تزوَّجَ امْرأةً ثُمَّ تزوَّجَ أُخْرَى كأنَّهُ عَلَّ منْهَا، والعَلَلُ الشُّربُ بعْدَ الشُّرْب، وأوْلادُ العَلاَّتِ الإخْوةُ منَ الأبِ، وأُمَّهاتُهُمْ شتَّى وقدْ بيَّنَهُ في روايةِ عبد الرَّحْمن فقَالَ: «وأمهاتهم شتَّى ودينُهُمْ واحدٌ» وَهُوَ منْ بابِ التَّفسيرِ كقَوْله تعالَى: (إنَّ الإنْسانَ خُلقَ هلُوعًا إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جزُوعًا وإذا مَسَّهُ الخَيْرُ منُوعًا) ومَعْنَى الحَديث: أنَّ أصْلَ دينهمْ واحدٌ وهُوَ التَّوْحيدُ وإن اختَلفَتْ فُرُوعُ الشَّرائع. اهـ (فتح الباري: ٦/ ٤٨٩).

وأنْ يفْهمُوا أنَّهُمْ يخدمُونَ في مَناحٍ شتَّى فمنْهُمْ منْ يخْدمُ في نشْرِ العلْمِ وإحْياءِ التُّراث، وبَعْثِ مجْدِ الأمةِ وعُلوم الإسْلامِ منْ جديدٍ- وهَذا لعَمْرُ الحقِّ عملٌ تنُوءُ بحَمْله الجِبالُ الرَّواسي وتشيبُ منْ أجْله النَّواصي-.

وآخَرُونَ يخْدمُونَ في مَجالِ الدَّعْوة فيَطُوفُونَ البُلْدانَ، ويَمْشُونَ في الطُّرقاتِ والأسْواقِ، ويَطْرُقونَ الأبْوابَ يتحمَّلُونَ الأذَى، ويَبْذُلُونَ الأوْقاتِ والأعْمارَ.

وبَعْضُهُمْ يعْمَلُ بخدْمةِ أهْلِ الإسْلامِ ورعايةِ الفُقراءِ واليَتامَى.

وكُلٌّ فيه خيْرٌ وبعْضُهُمْ منْ بعْضٍ ونَرْجُو أنْ يكُونَ كلٌّ منْهُمْ مُثابًا علَى قصْده فإنَّ لكُلِّ وَجْهٍ منْفعةً في خدْمةِ الإسْلامِ ونشْره.

لكنَّ المُشْكلةَ تكْمُنُ فيمَنْ يبْذُرُ بُذُورَ الشِّقاقِ؛ فيَطْعنُ في غيْره بغير وجه حق، ويدَّعي أنَّهُ علَى الحقِّ، وأنَّ غيْرَهُ علَى الباطل،وتلْكَ هيَ العصبيَّةُ الَّتي تأتي علَى بُنْيانها منَ القَواعد.

وأخيرًا بعْدَ تغيُّرِ الأحْوالِ في مصْرَ وبعْض بلاد الإسْلامِ والعُرُوبةِ اتَّسعَ الخَرْقُ علَى الرَّاقع، وزادَ الطينَ بلَّةً، وباتَتْ هُوَّةُ الخلاف واسعةً فأضْحَى الفَريقُ الواحدُ فرَقًا، وعادَى الأخُ أخاهُ، وخَوَّنَ الأشقَّاءُ بعْضُهُمْ بعْضًا، وسفَّهَ آخرُونَ عُقُولَ مُخالفيهم، وباتَ كُلُّ حزْبٍ بمَا لدَيْهمْ فرحُونَ، حتَّى شَمَتَ فينَا كُلُّ شامتٍ وصرْنَا ضُحْكةً للرُّقعاءِ والسُّفهاءِ واللهُ المُسْتعَانُ.

ولأبي دلف العجْلي:

ولَمْ أرَ في الخُطُوبِ أشدَّ هَوْلاً
وأصْعبَ منْ مُعاداةِ الرِّجالِ

(بهجة المجالس لابن عبدالبر: ١/ ١٦٦).

لقدْ أصْبحَت الفئةُ الواحدةُ أوْزاعًا، وباتَ الكيَانُ الواحدُ فرَقًا ومزَقًا.

وانظُرْ إلَى بعْضِ الدَّعْواتِ القائمةِ في مصْرَ الَّتي كانَتْ علَى النَّهْجِ الصَّحيحِ كيْفَ تحوَّلَتْ إلَى ألْوانٍ مُتعدِّدةٍ؟

حتَّى قلَّ مَنْ تَراهُ فيهمْ منْصفًا لإخْوانه بَلْ

أَكْثرهُمْ يُحاققُ ويُخانقُ، وَيُشاققُ وَيُضايقُ، وَيتعرّضُ لمخالفيه بالإهانة والتجريح، ويرميهمْ بالتنقيص والتقبيح ولا يملكُ المرْءُ إلا أنْ يُرَدّدَ مَعَ السَّابقينَ قائلاً: «غفرانكَ ربّنا وإليكَ المصيرُ».

وَهَذه منْ مُرّ الثمرات التي نجنيها منَ العصبيّة وعدم الرّويّة وترْك العودة إلى الجادّة فضْلاً عنْ عمى البَصائر وفساد السّرائر وما يقعُ في النفوس من المحن والإحَن وتوابعها من الضّرائر فاللّهمّ احفظْنا فأنتَ ثقتُنا حينَ تنقطعُ الحيَلُ، وما لنا في غيْرك رجاءٌ حينَ يَسوءُ الظّنُّ.

وعن نفسي أقولُ: لسْتُ أجهلُ ولا أجحدُ فضل أحد منْ هؤلاء ولا أثرهُمْ في الدّعوة والإصْلاح وهداية النّاس لكنّي أحبُّ لإخواني ما أحبُّ لنفسي منَ الكمال وسلامة الصّدْر وعدم شتات الأمْر فالله المُسْتعانُ.

علاجُ هذه العصبيّة والتّفرّق:

لقد وجب الأخذ بالعلاج وحق البحث عن دَواء العَصَبيَّة وهو بين أيدينا وعن أيماننا وعن شمائلنا في كتاب الله تعالى وسنة نبينا- صلى الله عليه وسلم- يعرفه من نور الله بصيرته وأزال عن بصره غشاوته ورفع عن قلبه الأكنة وأطلق لفكره وعقله الأعنة فهل من مدكر؟!

أوّلاً: تعظيمُ الكتاب والسُّنّة:

وذلك بتقديمهما عَلى مَا سواهُمَا كَمَا في العُصُور الزَّاهيَة وَالعُهُود الزّاكيَة فَإنَّ هَذَا هُوَ المَخْرَجُ منَ الفتْنَة وَالمَخْلَصُ منَ المحْنَة وَهَذَا يَحْتَاجُ إلَى صَدْر غَنيٍّ بالتَّقْوَى، ممتلئ بحب الله ورسوله، بَعيد عَن الهَوَى.

قَالَ ابن القيم: « وَكَمَا أَنَّ الإيمَانَ فَرْضٌ عَلَى كُلّ أحد فَفَرْضٌ عَلَيْه هجْرَتَان في كل وَقت: هجْرَة إلى الله عَزّ وَجَلّ بالتَّوْحيد وَالإخْلاص وَالإنابَة وَالتَّوكّل وَالخَوْف وَالرَّجَاء وَالمَحَبَّة وَالتَّوبَة، وَهجْرَة إلَى رَسُوله بالمُتَابَعَة وَالانقيَاد لأمْره، وَالتَّصْديق بخَبَره، وَتَقْديم أمْره وَخَبَره عَلَى أمْر غَيْره وَخَبَره:

«فَمَنْ كَانَتْ هجْرَتُهُ إلَى الله وَرَسُوله فَهجْرَتُهُ إلَى الله وَرَسُوله وَمَنْ كَانَتْ هجْرَتُهُ إلَى دُنْيَا يُصيبُهَا أو امْرَأة يَتَزَوَّجُهَا فَهجْرَتُهُ إلَى مَا هَاجَرَ إلَيْه» (زاد المعاد: ٣/١١).

وهذا الأمر معدود من أهم أنواع الأدب مع رسول الله صلى الله عليه.

قال ابن القيم: «وَمنَ الأَدَب مَعَ الرَّسُول صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ: أَنْ لا يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْه بأمْر وَلا نَهْي، وَلا إذْن وَلا تَصَرُّف. حَتَّى يَأمُرَ هُوَ، وَيَنْهَى وَيَأذَنَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (الحجرات: ١)، وَهَذَا بَاق إلَى يَوْم القيَامَة وَلَمْ يُنْسَخْ. فَالتَّقَدُّمُ بَيْنَ يَدَي سُنَّته بَعْدَ وَفَاته، كَالتَّقَدُّم بَيْنَ يَدَيْه في حَيَاته، وَلا فَرْقَ بَيْنَهُمَا عنْدَ ذي عَقْل سَليم...

وَمنَ الأدَب مَعَهُ:

أَنْ لا تُرْفَعَ الأَصْوَاتُ فَوْقَ صَوْته. فَإنَّهُ سَبَبٌ لحُبُوط الأعْمَال فَمَا الظَّنُّ برَفْع الآرَاء، وَنَتَائج الأفْكَار عَلَى سُنَّته وَمَا جَاءَ به؟ أتَرَى ذَلكَ مُوجبًا لقَبُول الأعْمَال، وَرَفْعُ الصَّوْت فَوْقَ صَوْته مُوجبٌ لحُبُوطهَا؟...

وَمنَ الأدَب مَعَهُ:

أَنْ لا يَجْعَلَ دُعَاءَهُ كَدُعَاء غَيْره. قَالَ تَعَالَى: « لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا » (النور: ٦٣). وَفيه قَوْلان للمُفَسّرينَ...

الثَّاني: أَنَّ المَعْنَى: لا تَجْعَلُوا دُعَاءَهُ لَكُمْ بمَنْزلَة دُعَاء بَعْضكُمْ بَعْضًا. إنْ شَاءَ أجَابَ، وَإنْ شَاءَ تَرَكَ، بَلْ إذَا دَعَاكُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بُدٌّ منْ إجَابَته، وَلَمْ يَسَعْكُمُ التَّخَلُّفُ عَنْهَا ألْبَتَّة...

وَمنَ الأدَب مَعَهُ: أَنْ لا يُسْتَشْكَل قَوْلُهُ: بَلْ تُسْتَشْكَلُ الآرَاءُ لقَوْله: وَلا يُعَارَضُ نَصُّهُ بقيَاس بَلْ تُهْدَرُ الأقْيسَةُ وَتُلْقَى لنُصُوصه. وَلا يُحَرَّفُ كَلامُهُ عَنْ حَقيقَته لخَيَال يُسَمّيه أصْحَابُهُ مَعْقُولاً، نَعَمْ هُوَ مَجْهُول، وَعَن الصَّوَاب مَعْزُول، وَلا يُوقفُ قَبُولُ مَا جَاءَ به صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ عَلَى مُوَافَقَة أحَد، فَكُلُّ هَذَا منْ قلَّة الأدَب مَعَهُ صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ. وَهُوَ عَيْنُ الجُرْأة» (مدارج السالكين: ٢/٣٦٧- ٣٦٨).

وقَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ عَبْدُ الرَّزَّاق حَمْزَةَ: «وَلَيْسَ بَيْنَ المُسْلمينَ اليَوْمَ إلَى يَوْم القيَامَة وَبَيْنَ العز وَالسُّؤدُد وَمُزَاحَمَة رَكْب الحَيَاة سوَى التَّوَجُّه إلَى كتَاب رَبّهمْ وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والاهتداء بهما والعلاج بأدويتهما في تصحيح ما فَسَدَ منْ عَقَائدهم وَأعْمَالهمْ وَأخْلاقهمْ وَدينهمْ وَدُنْيَاهُمْ بلا تَقَيُّد بأحَد مُعَيَّن كَائنًا مَنْ كَانَ، سوَى التَّقَيُّد بروَايَة الثّقَات منْهُمْ وَإيضَاح مَا أبْهَمَ ممَّا أثر منْ علْم الصَّحَابَة وَالتَّابعينَ وَتَابعيهمْ بإحْسَان.

وَقَدْ حَفظَ الله القُرْآنَ فَضْلاً منْهُ، وَإعْذَارًا بنَصّه وَحُرُوفه وَكَلمَاته وَمَعْنَاهُ، وَقَيَّضَ لمَا فَسَّرَهُ منْ

السُّنَّة النَّبويَّة مَنْ بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ لله تعالى في تدوينها وَتَمْحِيصها وَتَهْذِيبها وَتَبْوِيبِهَا للتَّنَاوُل، وَمَا عَلَى النَّاسِ سوَى الاهْتِدَاء والْعَمَل وَالاقْتِدَاء وَالْيَقَظَة بَعْدَ طول المَنَام وَالغَفْلَة وَالْجهالة، أَخَذَ الله بأَيْدِينَا وَقُلوبنَا وَأَسْمَاعنا وَأَبْصَارنا إِلَى سُلُوك الصِّرَاط المُسْتَقيم آمين» (التنكيل: ١/ ١٣٣).

من أجل ذلك أقول: إن إقامة الدين لا يكون إلا بنَبْذ العَصَبِيَّة وَمجانبة التَّعَصُّب، واتباع الدليل، واقتفاء الأثر، وتوظيفه في السلوك، وتوطينه في حياة المسلمين، وسلوك سبيل السلف من الامتثال للكتاب والسنة.

وهذه لعمر الله أمور كافية في إنقاذ الناس من وحل التعصب الممقوت (إذا أقاموا كتاب الله وفقهوا ما فيه من البينات التي هي حجج الله، وما فيه من الهدى، الذي هو العلم النافع والعمل الصالح، وأقاموا حكمة الله التي بعث بها رسوله صلى الله عليه وسلم-وهي سنته- لوجدوا فيها من أنواع العلوم النافعة ما يحيط بعلم عامة الناس) (اقتضاء الصراط المستقيم: ١/ ١٠٥).

ثانيًا: يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّنَا في مَرْكَب وَاحد إذَا نَجَتْ نَجَوْنَا جَمِيعًا وَإِذَا غَرقَتْ غَرقْنَا جَمِيعًا:

فَعَن النُّعْمَان بْنَ بَشِير رَضيَ الله عَنهُمَا، عَن النَّبيِّ صَلَّى اللهِ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ: « مَثَلُ القَائم عَلَى حُدُود الله وَالوَاقع فيهَا، كَمَثَل قَوْم اسْتَهَمُوا عَلَى سَفينَة، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذينَ في أَسْفَلهَا إذَا اسْتَقَوْا منَ المَاء مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا في نَصيبنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذ مَنْ فَوْقَنَا، فَإنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَميعًا، وَإنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْديهمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَميعًا » (رواه البخاري: ٢٤٩٣).

وَعَلَيْه فَلا يَنْتَصبُ لقيَادَة النَّاس وَالأَخْذ بزِمَامهمْ إلاَّ ذَوُوا الإنْصَاف وَالدِّيَانَة وَالنُّصْح وَالْخبْرَة وَالْمَعْرفَة بحُسْن سيَاسَة الأُمُور مَعَ حُسْن خطَاب يَشْفي منَ الدَّاء المُخَامر وَالْخَبَل الذي توطن رؤوسًا وأفسد أفهامًا وردها على أدبارها حائرة ثكلى، وجميل قول يُفيدُ عَقْلاً وَتَأْديبًا.

أَمَّا مَنْ كَانَ أَهْوَجَ غَيْرَ رَشيد يَغْلبُ عَلَيْه العَويلُ وَالزَّويلُ (أي القلق والانزعاج: ينظر: السير: ٥/ ٢٧٢) مَعَ كَوْنه غَيْرَ مُبرَّأ عَن التُّهْمَة بالْمَيْل هُنَا أَوْ هُنَاكَ فَلا نَتَلَعْثَمُ في عَدَم مُتَابَعَته وَلاَ نَتَرَدَّدُ في ذَهَاب الوُثُوق بنُصْحه.

إنَّ القَائدَ بمَعْنَاهُ لاَ بشَكْله وَهَوَاهُ؛ فَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ في مَعْنَاهُ أَرَقَّ منَ النَّسيم، لَكنَّهُ في هَيْئَته كَاللَّيْل البَهيم، وَمَعَ ذَلكَ يُؤَيِّدُ اللهُ به الإسْلامَ، وَيَفْتَحُ عَلَى يَدَيْه، وَتَحفظُ عَنْهُ آثارَ إحْسَان في الإسْلام وَأهْله. بَيْنَمَا تَرَى الرَّجُل يَنْتَسبُ إلَى العلْم وَيَأْرزُ إلَى حَمَلَته قَدْ طَوَّل الأَرْدَانَ وَجَرَّ ذَيْلَهُ وَرَاءَهُ كَذَنَب الأَتَانِ، وَمَعَ ذَلكَ لاَ يُرَى عَلَيْه أَثَرُ العلْم وَلا يَعْرفُهُ به منَّا أَحَدٌ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَاءَ يَخْبُثُ طَعْمُهُ

وَلَوْ كَانَ لَوْنُ المَاءِ أَبْيَضَ صَافِيَا

فَاحْذَرْ أُنَاسًا حَكَّمُوا المَظَاهرَ في هَذه المَخَاطر حَتَّى قَصَّرُوا بالْعَالي القَدْر عَنْ دَرَجَته، وَرَفَعُوا مُتَّضعَ القَدْر فَوْقَ مَنْزلَته، وَلَمْ يُعْطُوا كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ؛ فَوَقَعَتْ بالأُمَّة مَفَاسدُ لا تَفْنَى وَلاَ تَنْتَهي؛ وَالهُدَى نُورٌ يَقْذفُهُ اللهُ في قُلُوب مَنْ يَشَاءُ منْ عبَاده فَلا قُوَّةَ إلاَّ بالله.

كَمْ وَقَعَتْ في بلاد الإسْلام مُنْذُ قُرُون خُرُوقٌ لَمْ تُرْتَق، وَفُتُوقٌ لَمْ تُخَطْ وَلَمْ تُرْقَعْ بَعْدُ بسَبَب العَصَبيَّة، وَكَمْ غَابَتْ شَمْسُ حَضَارَتنَا قُرُونًا بَعْدَ طُول إشْرَاق وَذَلكَ بالتعصب، وَهَلْ تَشَيَّعَتْ الشيعَةُ، وَخَرَجَتْ الخَوَارجُ، وَرَفَضَتْ الرَّافضَةُ، وَاعْتَزَلَت المُعْتَزلَةُ إلاَّ بالعَصَبيَّة؟!

فَقَاتَلَ اللهُ هَذه الآفَةَ، فَكَمْ أَنْزَلَتْ بالمُسْلمينَ منْ محَن وَإحَن في حَوَاضر الإسْلام بَلْ وَبَوَاديه شَرْقيِّهَا كَالعرَاق وَغَرْبيِّهَا كَالأَنْدَلُس؟!

ثَالثًا: يَجبُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّنَا نَخْدُمُ قَضيَّةً وَاحدَةً هي ديننَا: قَال تعالى: (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (الأنبياء: ٩٢)، وَكُلٌّ يَخْدُمُ بما يسر الله له بنشر العلم وحفظ السنة وتعليم القرآن ودعوة الناس إلى الله ومساعدة المعوزين وكفالة اليتيم ورعاية الأرامل وغير ذلك من أبواب الخير. فالتنوع لابد منه فلن يكون الناس طيفًا واحدًا، ومن أراد ذلك فقد رام المحال، فلزامٌ على المسلمين التعاون والمساندة لا التعادي والمنابذة، فلا يضيقون واسعًا، ولا يحجرون فضل الله عن أحد.

وَلْيَعْلَمْ مَنْ شَاءَ أَنْ مَنْ لَمْ يَعْقلْ ذَلكَ الأَمْرَ وَيَفْهَمْ هَذَا المَعْنَى جَيِّدًا؛ فَلَيْسَ ببَعيد أَنْ يَعْمَلَ لشَقِّ عَصَا المُسْلمينَ وَتَفْريق كَلمَتهمْ وَتَشْتيت جَمَاعَتهمْ وَتَمْزيق وَحْدَتهمْ، فَتَهنُ قُوَّتُهُمْ وَتَقْوَى شَوْكَةُ عَدُوِّهمْ، وَقَدْ يَسْتَحْكمُ التَّنَازُعُ بَيْنَ المُسْلمينَ فَتَكُونُ نَتيجَةَ الفَشَل المُخْزي لَهُمْ جَميعًا وشواهد الواقع وحوادث الأيام لا تخفى على اللبيب والله المستعان.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

الإحسان إلى اليتيم خُلُقٌ كريم

الحلقة (٣)

كيف تؤمّن مستقبل ذريتك (أولادك وبناتك) بعد موتك؟

إعداد/ صلاح عبد الخالق

الحمد لله ذي الجلال والإكرام، والصلاة والسلام على أفضل الأيتام وبعدُ:

كيف تؤمن مستقبل ذريتك (أولادك وبناتك) بعد موتك؟

سؤال لا بد أن نبحث له عن إجابات؛ لأن الموت يأتي فجأة، وتصبح ذريتك في عداد الأيتام وأنت مسئول أمام الملك سبحانه عن ذريتك وقبل أن نصل إلى مرحلة الضياع، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أن يُضَيِّعَ من يقُوتُ) (صحيح سنن أبي داود ١٤٨٥، صحيح الجامع: ٤٤٨١).

وكلمة (كفى إثماً) تدل على عظم هذا الإثم، أي: يكفيه من الإثم أن يضيع زوجته وأولاده. (دروس للشيخ أبي إسحاق الحويني: ٧/٢١).

إذا كان هذا في تضييعهم من جهة الدنيا من الأكل والشرب و... فكيف بتضييعهم من جهة الدين؟! هذا أعظم وأشد.

لا بد من الخوف على الذرية:

قال تعالى: (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ) (النساء: ٩).

وهكذا تمس اللمسة الأولى شغاف القلوب. قلوب الآباء المرهفة الحساسية تجاه ذريتهم الصغار. بتصور ذريتهم الضعاف مكسوري الجناح لا راحم لهم ولا عاصم. (تفسير الظلال: ١/٥٨٨).

نشعر من خلال هذه الآية بأنه لا بد من الخوف على الذرية من بعدنا وكم من أناس شعروا بهذا فبكوا بكاءً شديدًا عند مرض الموت خوفًا على أولادهم من بعدهم.

من طرق حماية الذرية أثناء الحياة وبعد الموت:

أولاً: حُسن اختيار المنبت الصالح:

قال تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ) (البقرة: ٢٢٣). حَرْثٌ لَكُمْ أَيْ مَزْرَعٌ وَمَنْبَتٌ لِلْوَلَد، وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّشْبِيه، فَفَرْجُ الْمَرْأَةِ كَالأَرْضِ، وَالنُّطْفَةُ كَالْبَذْرِ، وَالْوَلَدُ كَالنَّبَاتِ الْخَارِجِ. (مفاتيح الغيب: ١/٤٢١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: « تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ» (رواه البخاري (٥٠٦٠) ومسلم (١٤٦٦).

(فاظفر بذات الدين تربت يداك)، وهذا يدل على أن الدين يُغني عن هذه الأشياء كلها، فكم من امرأة فقيرة، ولكن الله سبحانه وتعالى أغناها بالدين! وكم من امرأة ضعيفة، ولكن الله قوّاها وجعل عزّها بدينها! وكم من امرأة يراها الإنسان فيزدريها، ولكن الله جعل فيها قلباً يخافه ويخشاه فيحبها سبحانه! فمثل هذه المرأة الصالحة قد يُكرم الله بها الإنسان فتُخرج له أولاداً صالحين تقر عينه بهم، وخاصة عند المشيب والكبر. (شرح زاد المستقنع: ٤/ ٢٧٠).

قيل لعمر بن عبد العزيز لما حضرته الوفاة: هلا تركت شيئاً للصبية والأولاد والذرية؟ فقال: إن كانوا صالحين فلن يُضيعهم الله، وإن كانوا عُصاة فلن أضع لهم مالاً يتقوون به على معصية الله، قال الراوي: فوالله لقد رأيت كل واحد منهم حمل على مائة بعير في سبيل الله بأحلاسها وأقتابها وسلاحها؛ لأن غناء الله عطاء لا ينقطع، ومدد لا ينتهي، وجود لا ساحل له. (دروس للشيخ سعد البريك: ٤/ ٢٩).

ثانيًا: الاستعاذة والتسمية قبل الزرع:

- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ، فَقَالَ: بِاسْمِ اللَّه، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرُّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا». (رواه البخاري (٥١٦٥) ومسلم (١٤٣٤).

أ- فِي مُرْسَلِ الْحَسَنِ عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ: «إِذَا أَتَى الرَّجُلُ أَهْلَهُ فَلْيَقُلْ بِسْمِ اللَّه اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيمَا رَزَقْتَنَا، وَلاَ تَجْعَلْ لِلشَّيْطَانِ نَصِيبًا فِيمَا رَزَقْتَنَا فَكَانَ يُرْجَى إِنْ حَمَلَتْ أَنْ يَكُونَ وَلَدًا صَالِحًا». فتح الباري (٩/ ٢٢٩).

ب- « لم يضره شيطان أبداً » أي فإن ذلك الولد يكون في عصمة الله محفوظاً من الشيطان مدة حياته، فلا يمسّه بأذى. (منار القاري: ٥/ ١١٧).

ثالثًا: تقوى الله تعالى: قال تعالى:

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (النساء: ٩).

أ- «خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ»، فَإِنْ كَانَ لَكَ خَوْفٌ عَلَى صِغَارِك وَأَوْلَادِك الْمَحَاوِيجِ الْمَسَاكِينِ فَاتَّقِ اللَّهَ فِي أَعْمَالِك كُلِّهَا لَا سِيَّمَا فِي أَوْلَادِ غَيْرِك، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْفَظُك فِي ذُرِّيَّتِك وَيُيَسِّرُ لَهُمْ مِنْ الْحِفْظِ وَالْخَيْرِ وَالتَّوْفِيقِ بِبَرَكَةِ تَقْوَاك مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُك بَعْدَ مَوْتِك وَيَنْشَرِحُ بِهِ صَدْرُك. (الزواجر عن ارتكاب الكبائر: ١/ ٢٣).

ب- فمن أراد أن يحفظ الله سبحانه وتعالى ذريته من بعده إذا خشي الموت أو غير ذلك؛ فأعظم ذخيرة يدخرها لهم هي أن يتقي الله سبحانه وتعالى في حال حياته، وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فهذه هي أعظم وثيقة تأمين على الأولاد والذرية، وهي ليست المال، وليست العقارات، وليست أمور الدنيا، ولكن حفظهم بتقوى الله سبحانه. (لماذا نصلي للمقدم (٢/ ٣).

د- من معاني كلمة التقوى في القرآن:

ورد لفظ التقوى في القرآن الكريم على خمسة أوجه:

١- الخوف والخشية كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج: ١).

٢- العبادة كما في قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ

أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ) (النحل: ٢).

٣- ترك المعصية كما في قوله تعالى: (وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (البقرة: ١٨٩).

٤- التوحيد كما في قوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) (الحجرات: ٣).

٥- الإخلاص كما في قوله سبحانه: (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) (الحج: ٢٣).(نضرة النعيم (٤/١٠٨٠).

رابعًا: القول السديد: قال الله تعالى: (وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا) (النساء: ٩).

رابعـاً: معرفة أن الجـزاء من جنس العمل:

قال تعالى: (وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا) (النساء: ٩)، فكافل اليتيم اليوم إنما يعمل لنفسه لو ترك ذرية ضعافاً، فكما تُحسن إلى اليتيم اليوم يُحسَن إلى أيتامك في الغد، وكما تدين تُدان. (فضل كفالة اليتيم للسدحان: ١/ ١٤).

خامسـاً: احفظ الله يحفظك في ذريتك:

-عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ. (سنن الترمذي ٢٥١٦، وصححه الألباني).

« احْفَظِ اللَّهَ » يَعْنِي: احْفَظْ حُدُودَهُ، وَحُقُوقَهُ، وَأَوَامِرَهُ، وَنَوَاهِيَهُ، وَحِفْظُ ذَلِكَ: هُوَ الْوُقُوفُ عِنْدَ أَوَامِرِهِ بِالِامْتِثَالِ، وَعِنْدَ نَوَاهِيهِ بِالِاجْتِنَابِ، وَعِنْدَ حُدُودِهِ، فَلَا يَتَجَاوَزُ مَا أَمَرَ بِهِ، وَأَذِنَ فِيهِ إِلَى مَا نَهَى عَنْهُ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَهُوَ مِنَ الْحَافِظِينَ لِحُدُودِ اللَّهِ. (جامع العلوم والحكم: ١/ ٤٦٢).

- «احفظ الله يحفظك»، الله عز وجل يحفظ أولياءه في أنفسهم، وفي أهليهم، وفي أموالهم، وفي جوارحهم، وفي أعراضهم، يحفظهم من مكر الأعداء، وكيد الحاقدين، وتدبير المارقين. (فصل الخطاب في الزهد: ١/ ٣٩٦).

وبالنظر في قصة الغلامين بسورة الكهف: وصلاح أبيهما، قال تعالى: (وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) (الكهف: ٨٢).

لا بد أن العبد الصالح قد أقام الجدار بأسلوب مناسب؛ حيث توقع للجدار عمرًا افتراضيًّا للجدار بحيث إذا بلغ اليتيمان الرشد وقع الجدار أمامهما؛ ليرى كلاهما الكنز، لقد تم بناء الجدار على مثال القنبلة الموقوتة بحيث إذا بلغا الرشد ينهار الجدار ليأخذا الكنز. إنه توقيت إلهي أراده الله؛ لأن والد اليتيمين كان صالحا، اتقى الله فيما تحت يده فأرسل الله له جنودًا لا يعلمهم ولم يرتبهم ليحموا الكنز لولديه اليتيمين. (تفسير الشعراوي: ١/ ١٣٧٨).

- فيه تنبيه على أن سَعي الخضر وموسى عليهما السلام في ذلك كان لصلاح أبيهما، وفيه دليل على أن الله

تعالى يحفظ أولياءه في ذريتهم.

وقيل: كان بينهما وبين الأب الذي حُفظا به سبعة أجداد. قال محمد بن المنكدر: (إنَّ الله لَيَحْفَظُ بالرَّجل الصَّالح وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِه والدُّوَيْرَاتِ الَّتي حَوْلَهُ فَمَا يَزَالُونَ في حفْظ منَ الله وَسِتْر)، وقال سَعيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ لابْنِه: لأَزيدَنَّ في صَلاتي منْ أَجْلكَ، رَجَاءَ أَنْ أُحْفَظ فيكَ، ثُمَّ تَلا هَذه الآيَةَ «وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا». (تفسير البحر المديد: ٢٦٧/٤).

سادسًا: اترك ورثتك أغنياء:

- عَنْ سَعْد رَضيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ يَعُودُني وَأَنَا مَريضٌ بمَكَّةَ، فَقُلْتُ: لي مَالٌ، أُوصي بمَالي كُلِّه؟ قَالَ: «لا» قُلْتُ: فَالشَّطْرِ؟ قَالَ: «لا» قُلْتُ: فَالثُّلُث؟ قَالَ: «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثيرٌ، أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنيَاءَ خَيْرٌ منْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ في أَيْديهمْ، وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا في في امْرَأَتكَ، وَلَعَلَّ اللهَ يَرْفَعُكَ، يَنْتَفعُ بكَ نَاسٌ، وَيُضَرُّ بكَ آخَرُونَ» (رواه البخاري (٢٧٤٢) ومسلم (١٦٢٨).

لاحظ معي قول النَّبيِّ صَلى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: (أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنيَاءَ خَيْرٌ منْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ)؛ هَذَا نَصٌّ في أَنَّ ادِّخَارَ شَيْءٍ للْوَرَثَة بَعْدَ أَدَاء الْحُقُوق الْمَاليَّة الْوَاجبَة منْ زَكَاةٍ وَغَيْرِهَا خَيْرٌ منْ عَدَم التَّرْك. (الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٤٨/٢).

- (أن تدع) أي أن تذر وتترك و(العالة) جمع العائل وهو الفقير، و(يتكففون الناس) أي يمدون إلى الناس أكفهم للسؤال. (الكوكب الدري في شرح البخاري (٣/٢٠).

سابعًا: القيام بواجب تربية الأولاد:

القيام بالمسئولية التربوية من الآباء والأمهات تجاه الذرية واجب؛ حتى ينشأ الأبناء جيلاً نافعًا له ولوالديه وللناس جميعًا، والقرآن العظيم غني بالنصائح الأبوية الكثيرة لإصلاح الدنيا والآخرة، ونشر السعادة والأمن في كل مكان منها مثلاً نصائح لقمان الحكيم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان: ١٣).

والسنة النبوية الصحيحة عامرة بوصايا عظيمة. فيها الهدى والنور والسعادة والسرور، منها حديث ابْن عَبَّاس، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَات، احْفَظ اللهَ يَحْفَظْكَ... (سنن الترمذي: ٢٥١٦).

وبذلك تكون-بإذن الله تعالى- أمنت مستقبل ذريتك الأخلاقي. وإياك وإهمال رعيتك، عن مَعْقل بْن يَسَار الْمُزَنيِّ قال: قال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «مَا منْ عَبْد يَسْتَرْعيه اللهُ رَعيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لرَعيَّته، إلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْه الْجَنَّةَ» (صحيح مسلم: ١٤٢).

ثامنًا: الدعاء الدائم بصلاح الذرية:

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ (الأحقاف: ١٥- ١٦).

«وَأَصْلحْ لي في ذُرِّيَّتي» أَي: اجْعَلْ ذُرِّيَّتي صَالحينَ. قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْد الله: الْمَعْنَى اجْعَلْهُمْ لي خَلَفَ صدْق، وَلَكَ عَبيدَ حَقٍّ. وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ اجْعَلْهُمْ أَبْرَارًا لي مُطيعينَ لَكَ. وَقَالَ ابْنُ عَطَاء: وَفِّقْهُمْ لصَالح أَعْمَال تَرْضَى بهَا عَنْهُمْ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَليٍّ: لَا تَجْعَلْ للشَّيْطَان وَالنَّفْس وَالْهَوَى عَلَيْهمْ سَبيلاً. (تفسير القرطبي: ١٩٥/١٦).

اللهم أصلح لنا في ذرياتنا واجعلهم قرة عين لنا يا رب العالمين.


الآن
المجلد الجديد لمجلة التوحيد
التوحيد
١٤٣٦هـ
موسوعة علمية
لا تخلو منها مكتبة
ويحتاج إليها
كل بيت
١٤٣٦هـ
سارع باقتناء
نسختك من
المجلد الجديد
23936517


بشرى سارة
معرض مجلدات مجلة التوحيد
مفاجأة كبرى
موسوعة مجلة التوحيد (كرتونة المجلدات ٤٤ سنة كاملة بـ٥٥٠ جنيهاً بدلاً من ٨٥٠ جنيهاً)
مفاجأة :
اشتراك سنة مجانًا بمجلة التوحيد لمن يشتري الموسوعة.
الكمية محدودة والعرض سارٍ حتى نفاد الكمية.
مفاجأة :
يمكنك الدفع عند الاستلام عن طريق مكتب الشحن.
ويمكنك الشراء وإرسال الكرتونة على عنوانك عن طريق مكتب الشحن.
التوحيد
أوسع المجلات الإسلامية انتشاراً في العالم
٤٤ مجلداً
٤٤ عاماً
المعرض مفتوح يوميًا بالدور السابع بالمجلة
للاستفسار يرجى الاتصال بقسم الاشتراكات بمجلة التوحيد: 23936517
صدر حديثاً المجلد الجديد لعام ١٤٣٦ هـ